محمد عزالدين التازي

وهج الليل

رواية

الكتاب: وهج الليل (رواية)

الكاتب: مُحَمَّد عز الدين التازي

الطبعة: ٢٠٢٣

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم –

الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

التازي، مُحَمَّد عز الدين

وهج الليل (رواية)/ مُحَمَّد عز الدين التازي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٤٥ ص، ١٨*٢١سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٧٠٤ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان **رقم الإيداع : ٧٤٨٥ / ٢٠٢٣**

وهج الليل

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

"يا صاحبي أنت خيالي من أصحاب الخيال، تمضي جريئا في دروب المحال، تحلم بالرؤى وتنسج الأقاويل وتفكر في المآل، تعيش قريبا من الحدوس ولا تبتعد بالمجرد من المحسوس، لا تَحْبِسُ نفسك في محبس ولا تخرج من مجلس إلا وأنت قريب من الناس وعيشهم وأفكارهم حتى وأنت بعيد على قريب على بعد، تنبذ الكذب وصناعة الرياء، وتصاحب أصحاب الوجادات والمجانين والشعراء. لك بحر الأخيلة تسبح فيه، وعالم التَّصَوُّرَاتِ تَمُور فيه، ولي من افتتانك ما أنا مُفْتَتِنٌ به، افتتنان من يرافقك في ضروب الأخيلة ومواجع الأسئلة، أما أنا فلا سلطان لي عليك، أيها العجيب الغريب، البعيد القريب، التَّائه المُرِيب، هَلاَّ غادرتني إلى أوراقك، كان الله في عونك وفي عون الوَرَّاقِ وقارئ هذه الأوراق!".

(ابن ضربان الشرياقي)

الفصل الأول

السمسار

عبد الله النادي

أنا المرتيلي عبد الرحمن النادي، صاحب الصبوات والشهوات، أحب الحياة على قلة ما نلت فيها من حظوظ. أستبشر بكل ما هو آت، أما ما يقع حولي من شرور فأنا أحاول أن أُبعد نفسي عنها حتى لا يلحق بي الضرر، وأن أنسى كل ما تعرضت له من إحباط رغم أن النسيان ليس مسألة إرادية تتم بكامل السهولة. متسامح ليس في قلبي غِلٌّ على أحد. أنسى الأشياء المحزنة وأحاول دائماً أن أتذكر الأشياء الجميلة التي تُشعرني بالحنين إلى الماضي. تعودت على ألا أتدخل فيما لا يعنيني، ما عدا شيء من الفضول به أتابع ما تعرفه مدينتي مرتيل من تغير في حياة الناس، وهو فضول لا يعني أنني أتدخل في حياتهم أو أُفسد ما بينهم من علاقات.

أعيش على الكفاف والعفاف. لا أستدين من أحد، وإن طلب مني أحد أن أقرضه مبلغاً وكان معي فأنا لا أتردد في ذلك، لأنني أعرف وقت الشدة الذي يعيشه من يطلب ذلك الدين، وأعرف أنه قد يأتي عليه وقت رخاء فيرد دينه أو لا يرده. لا أشح على نفسي ولا أدعي أنني كريم، فما عندي من مال أنفقه على نفسي وعلى والدتي، فلا يبقى لي ما أنفقه على غيري.

في (مقهى الياسمين) تعودت على قضاء بعض الأوقات من يومي، أنتظر خلالها زبونا أو ألتقي من يرغبون في سكن. أدفع ثمن كأس الشاي الأسود التي أشربها ولا أنتظر من أحد أن يدفع عني ثمنها إلا إذا كنت أجالس زبوناً من زبائني وألح على أن يدفع ثمن ما شربناه. هاتفي المحمول، الذي هو وسيلة الاتصال بيني وبين بعض زبائني، أعبئه في الأوقات التي تكون فيها التعبئة مضاعفة، ومع ذلك أحافظ على الرصيد، وأقترح على الزبون أن يتصل بواسطة هاتفه الخاص بزبون

آخر بعد أن أُخرج الدفتر الذي قيدتُ فيه أرقام الهاتف وأُمكنه من رقم هاتف ذلك الزبون. كل ذلك يجعلني أعيش على الكفاف والعفاف. لا أستغني عن الناس، فمعهم أعيش ومعهم أتدبر رزقي، وأستأنس في وحشة هذه الحياة.

علمتني مهنتي أن أجامل من غير نفاق، وأن آخذ بخاطر من يظهر أمامي عصبي المزاج متوتر الأعصاب، أحيي السيدة بانحناءة من رأسي من غير أنظر إلي عينيها حياء وتأدباً، وأحترم كبير السن فأقدمه عليَّ في الطريق أو أسير بسيره. لا أتدخل في شؤون السياسة، فلست منتمياً إلى حزب معين بعد أن ظهر لي أن عمل الأحزاب يقتصر على فترات الانتخابات، أما ما عدا ذاك فمقراتها مغلقة، ولا دور لها في الحياة الاجتماعية، ما دام من وصلوا إلى المجالس المنتخبة قد وصلوا، ولا أحد يراهم، وكل ما نسمعه عنهم هم أنهم قد أصبحوا يملكون الشق السياسية في مربيا ويكدسون الثروات في بنوك تركيا، يسوقون السيارات الفارهة، ويعلمون أبناءهم في جامعات إسبانيا، ناسين أو متناسين ما عاشوا من فقر مدقع، فقد كان أحدهم جيارا يبيض البيوت بالجير، حتى لا أقول صباغا، فهو عندما هاجر إلى إسبانيا سأله رب العمل عن عمله فأخبره بأنه صباغ. أعطاه الصباغة وطلب منه أن يصبغ حائطا، وعندما رآه يخبط بالفرشاة خبط عشواء لامه على ادعائه وصرفه. وآخر كان يبيع الفحم، فأصبح يملك محطة للبنزين، وعمارة فاخرة، أنا من قام بجلب من اشتروا منه شققها. وآخر كان معلما ثم أثرى فأصبح يتجاهل من كانوا يعملون معه في المدرسة، وإن احتاجوا إلى مساعدته من أجل تكريم معلم بلغ سن التقاعد فهو لا يستجيب لهم. قال لي حسن الديباجي:

"الانتخابات هي التي غيرت حياة بعض الناس، لكنها لم تأت بما تفيد المدينة ويحقق لها الرقي، فالكورنيش تم إعداده ضمن برنامج التنمية الوطنية، وكذلك سوق السمك، والمستشفى المركزي، ودار الطالبات، كلها منجزات تحققت في

المدينة ورئيس البلدية وأعضاؤها يتفرجون، كأن ذلك لا يعنيهم ولا يعني مدينتهم. ليس هذا هو حال مدينتنا، بل هو حال المغرب، لا فرق بين حزب تقدمي وآخر اشتراكي وآخر ليبرالي وآخر إسلاموي، فكلهم يسعون للوصول إلى المال والمناصب مستعينين في ذلك بأموال أباطرة المخدرات، وعند وصولهم إلى المجالس يردون تلك الأموال لأصحابها على شكل رخص للبناء أو تفويت عقارات تملكها البلدية بأثمان زهيدة. شبان حينا يقبلون على المرشحين خلال الحملات الانتخابية ليقوموا بالدعاية، فتراهم يأكلون ويشربون من الخمور ما يجعلهم أكثر حماسا للمرشح فيهتفون باسمه في الشوارع، ومنهم من ينساهم المرشح، ومنهم من يجد لهم عملا في البلدية، وهكذا تسير الأمور".

خلال الحملة الانتخابية، وحتى قبلها، كنا نعرف من سيكون الفائز، فمن يدعمون ترشيحه معروفون حتى وهم يقومون بذلك الدعم في الخفاء. لم أتقرب من أي مرشح، حتى مرشح حينا يعرف أنني لا أقترب من موائده، ولا أهتف باسمه، وإن كنت أتجنب عداءه إن ظن أنني مع من لا يشايعونه ويساندون غيره. أفضل أن أبقى في الحياد.

في أيام الانتخابات يتحول حينا إلى مطاعم مجانية يقبل عليها الفقراء فيأكلون اللحم والدجاج والفواكه، ثم لا يقومون على تلك الموائد قبل أن يهتفوا باسم المرشح، ومن شيوخ حينا من كانوا ينزعون عماماتهم عن رؤوسهم، لما أصابهم من حماس، فيلوحون بها في الهواء، ويحيون المرشح. كل ذلك من أجل غذاء يوم، يتبعه الجوع لأعوام.

خلال المساء تدخل حينا سيارات وشاحنات ليركبها شبان الحي، فيطوفون بشوارع المدينة وهم يهتفون باسم المرشح. الكل يعرف ما يريدون. المرشح يريد أن يصبح رئيسا للبلدية، والشبان يرغبون في وظيفة أو عمل يخرجون به من

البطالة، أما مرتيل فتبقى على حالها. الحملات الانتخابية تستقطب بعض الشباب العاطلين مقابل مائتي درهم في اليوم، وما هي إلا عشرة أيام تستغرقها الحملة يربح منها أولائك الشباب ألفي درهم، وهو مبلغ مهم بالنسبة لعاطل أو شبه عاطل، أما بالنسبة لمهرب للسلع من سبتة فهو أقل بكثير مما يربحه في اليوم. في الأيام الأخيرة للحملة تتحول الأحزاب السياسية إلى قبائل تتحارب في حرب يومية تستخدم فيها السيوف والمواد الحارقة، وبعد ظهور النتائج تتوقف تلك الحروب ويطويها النسيان، إلى أن تأتي انتخابات أخرى.

كان يذكر أسماء مرشحين للإنتخابات في مناطق أخرى، وعلى طول وعرض التراب الوطني، صدرت في حقهم أحكام بسرقة المال العمومي ولم تنفذ، ثم ها هم دون حياء يعودون ليضللوا الناس بالشعارات الكاذبة، والعيب على رؤساء الأحزاب الذين يضعونهم على رأس اللائحة. يذكر العديد من الأسماء، والجرائم التي ارتكبوها في حق المال العمومي والتي طالت مئات الملايير. يتحسر على مسلسل ديمقراطي لا يأتي للمجالس المنتخبة إلا بلصوص المال العام، ويتحسر على شعب يصوت على اللصوص انتخابات تلو أخرى. قال لي:

"الديمقراطية يا عبد الرحمن سلوك يومي يبدأ من الممارسة داخل الأسرة وفي الفصول الدراسية ومن خلال علاقات الناس ببعضهم حيث لا يوجد من بينهم من يستغل الآخر أو يسعى إلى تدجينه ليصبح على صورته في التفكير والممارسة، وكأن الإيمان عندهم يؤدي إلى الجماعة، حيث يصبح كل الناس نسخا من بعضهم، يقومون بنفس الأفعال ويتداولون نفس الأفكار. ليس الإسلامويون وحدهم من يكرسون ذلك، فحتى السياسيون يجعلون أتباعهم يجترون نفس العبارات ويقدسون نفس الأشخاص دون غيرهم، وإن ورثوا أبناءهم مكانتهم السياسية فالتقديس يصبح للأبناء، حتى وهم غررة، لا قدرة لهم على تسيير

شؤون البلاد. الفاشي يا أخي هو الرحمن هو من لا يؤمن بالحق في الاختلاف، سواء أكان متدينا أو متحزبا. أما التسيس، فهو ضرورة تجعل الناس ينخرطون في الشأن العام بوعي سياسي اجتماعي إن كانوا من محدودي الثقافة فهم يتلقونه في انتمائهم الحزبي، وعندما سكن الخواء رؤساء الأحزاب، ماتت الأحزاب".

لم أستوعب الكثير مما قال، وهو يعرف أنني أصلي صلاة الصبح في المسجد، أركع مع الراكعين وأسجد مع الساجدين، فهذه هي الصلاة مع الجماعة، كما أنا أعلم أنه يشرب الخمر وأترك الأمر لخالقه، فلم أُظهر له غضبا من ذلك، ولم أتجنبه ولم أقاطعه، لأنني إنسان متسامح.

المشكلة ليست بيني وبين الشاعر حسن الديباجي، وإنما هي مع مجتمعنا الذين نعيش فيه وما يحفل به من شرور هي من فعل الخلق. أنا لست ثائرا على الأوضاع كحسن، وإن كنت أشاهد بأم عيني من كانوا حفاة عراة وقد أصبحوا يتطاولون في البنيان، فمن أين أتاهم المال؟

كان الطبيب الدكتور سعيد الرفاعي يجالسنا، وهو نفسه يتجنب الإنحياز إلى حزب سياسي دون آخر، كما كان يجالس مدير الأمن السي التايمي، وأساتذة الجامعة، ومن فضله عليَّ أنه كان يعالج والدتي لالة خيرة في أيام مرضها بالمجان. عندما يستبد حديث السياسة بالجلسة في المقهى كان يتفادى إبداء الرأي ويترك الباب مفتوحا لكل المتدخلين. أعرف أنه مثلي يجامل، ويحب أن يعيش بسلام.

كل من يعرفونني لا يجدون على وجهي عبوساً أو تبرماً. بالإبتسامة أستقبل كل المواقف وكل من ألتقي معهم، وهي ابتسامة صادقة، نابعة من القلب. أعقد صداقتي مع الجميع، من منتخبين في الجماعة الحضرية، ورجال سلطة، فالسيد الباشا والسيد القائد يعرفان عبد الرحمن النادي بتلك الابتسامة نفسها، ويعاملانه باحترام يُشكران عليه، ومدير الأمن السي التايمي طالما جالسته في مقهى (نجمة

البحر) وأصغيت إليه وهو يتحدث عن جرائم القتل والسرقة والاغتصاب التي تقع في مرتيل كل يوم، وهو يفسر أسبابها بانتشار المخدرات والبطالة وتَفَكُّكِ الأسر بسبب الطلاق. يقول إن المجرمين يتركون آثارا تدل عليهم، مهما حاولوا إخفاء تلك الآثار. يقول إن قانون الجريمة الذي درسه في كلية الحقوق يعود المدرسة السلوكية التي تدرس سلوك الحيوان، ومن مبادئ هذه المدرسة أننا لم نشاهد حيوانا يقتل آخر من نفس فصيلته، فحتى وإن تحارب الحيوان مع آخر وهما من نفس الفصيلة ووصلا إلى درجة أن يقتل أحدهما الآخر فمن يكاد يقتل يتراجع في آخر لحظة، لأن لديه خطا أحمر يجب أن يتوقف عنده، وهو ما لا نجده عند الإنسان. لذلك فنحن لم نر كلبا يقتل كلبا، أو قطا يقتل قطا أو قردا يقتل قردا أو أسدا يقتل أسدا ونرى الإنسان يقتل الإنسان، في بعض الأحيان، ببرودة دم.

من بين أصدقائي الآخرين عبد الرزاق الحلاق في (صالون ميامي)، والأستاذ الجامعي الدكتور عرفة الورزازي الذي خَلَّفَ موته أو انتحاره ألماً كبيراً في قلبي، وإبراهيم الصياد، الجار بالجنب، وغيرهم. كلهم مكنوني من أن أعرف الكثير أسرار الحياة، ومن بين من عرفتهم عن طريق المهنة الحاج الرايضي الذي يملك الملايير، كما أنني أعرف عبد الرحمن صاحب محل البقالة الذي يوجد بجوار (مقهى الياسمين) الذي أجلس فيه كل يوم، والنادل عبد المولى، كما أنني بحكم المهنة أعرف ملاكي العقارات وأصحاب الفنادق، كما أعرف الصيادين وباعة السمك في سوق مدينة مرتيل، وأعرف رحيمة الممرضة في مستوصف المدينة التي ترشحت للانتخابات مع حزب قبل خمس سنوات لم يكن له وجود، وقصتها لا بد أن تأتي، كما أعرف عمال المنطقة الصناعية، وبعض الوافدين على المدينة في الصيف من أجل الاستجمام، وآخرين وآخرين، لا فرق بين من لا يصطاد سمكا فيبيت

ليلته جائعا وبين من يمتلك الملايير، بين من يجعل من الحياة حلما ومن يعيشها كما هي في الواقع، بين عبد الله الترغي المتصوف الذي يرتدي الخرقة وبين نسرين ابنة رحيمة التي تبيع جسدها. أعرفهم جميعا، أصدقاء ومعارف جعلتني دروب الحياة ألتقي بهم لأعرف تفاصيل حياتهم فأعيشها معهم وأشاركهم في تفاصيلها، ومن بينهم أمي الزاهية التي كانت بمثابة أم لي، قمت برعايتها إلى ماتت فوق الفراش الذي ماتت فوقه أمي لالة خيرة. كل هذا وغيره، عشته مع أناس كثيرين، أخلصت إليهم ولم أجد منهم العداء، فقد وثقوا بي وباحوا لي بما في خواطرهم، ورغم أنني مجرد سمسار، فقد حظيت بمحبة الناس، وأصبح اسمي أشهر من نار على علم.

السمسار في عرف الناس غشاش ومدلس ومخادع، يقودهم إلى الخسارة وهو يُظهر لهم الربح. أنا لست ذلك السمسار. الربح والخسارة يقدران بالحنكة والمعرفة بالعقار، وبأثمان السوق، والغفلة ينبغي أن تكون بين البائع والمشتري. أما السمسار فلا ينبغي له أن يتلاعب بينهما، فإن كان بالعقار عيب لابد أن يطلع على من يرغب في شرائه. شأني كسمسار أن أُجْرِي العلاقات بين المكرين والمكترين وبين الباعة والمشترين، بما تتطلبه المهنة من جولات يومية في أحياء مرتيل وشوارعها ودروبها وأزقتها، وأُحْسِنُ فن التواصل حتى مع أسوأ الناس طباعاً وأكثرهم صلفاً أو ثرثرة زائدة أو استعداداً للمشادة الكلامية مع الآخرين. أُحسن التخلص حتى إن اقتضى الأمر أن أحسم في أن لا بيع ولا شراء أو لا كراء، لدفع سوء التفاهم، بالابتسامة نفسها، والرزق على الله، فثمة أناس لا يأتون لشراء شقة وإنما ليذكروا عيوبها عند رؤيتها أمام البائع ظناً منهم بأن ذلك سوف يجعله يبخس ثمنها، وهناك بائعون يبيعون الشقة وكأنها ملبسة بالذهب واللويز والجوهر، يُطيلون في الحديث عن مزاياها ظناً منهم بأن ذلك سوف يغري المشتري

ليدفع فيها أي ثمن حتى لو كان فوق ما تستحقه. أما المكترون من عمال المنطقة الصناعية وبعض من يعملون في البناء فغالباً ما يأتي واحد منهم ليكتري شقة ثم حينما يدخلها يُسْكِنُ معه ثمانية أو عشرة أنفار. الملاكون يعرفون ذلك ويشترطون على المكتري ألا يُسكن معه أحداً، ولكنه لا يفي بالشرط.

طوال الأيام أضع عيني على بعض الأراضي المخصصة للبيع أرشد إليها أصحاب المتاجرة في العقار، وعلى (الكورنيش) وما به من عمارات، وعلى الإقامات السياحية التي تقع على (طريق سبتة)، ولكن كم من فرصة للبيع أو الشراء ضاعت مني في رمشة عين بسبب تدخل سمسار آخر عرف كيف يستغل الوضع. أنا لست صاحب وكالة عقارية، وكل عملي في (مقهى اليمامة)، بواسطة الهاتف أُجْرِي العلاقات بين البائع والمشتري والمكري والمكتري. ثم إنني لست سمساراً أمياً، فأنا أقرأ الجرائد وأعرف ما يقع في البلاد من أحداث عن طريق متابعة نشرات الأخبار.

في كثير من المرات أقص على نفسي سيرة حياتي، فقد عشت في طفولتي يتيم الأب، ورغم بعض الحكايات التي كانت تحكيها لي والدتي عنه فأنا لم أستطع أن أُكَوِّنَ أية صورة تُقَرِّبُنِي من شخصه أو من بعض تفاصيل حياته الخاصة. هو الآخر عاش يتيما مثلي. ربته أمه كما ربتني أمي، ولم يكن له إخوة أو أخوات مثلما أنا عشت لا أخ لي ولا أخت، بذلك لم يترك لي أعماماً أو عمات أو أخاً أو أختاً.

درست في (ثانوية القاضي عياض) بمدينة تطوان في ذلك العهد السبعيني من القرن الماضي وأخفقت لثلاث سنوات في الحصول على البكالوريا. في ذلك الوقت، لم تكن بمرتيل مدرسة ثانوية، لذلك كنت أقضي النهار في الدراسة في تطوان ثم أعود في المساء إليها لأجول في حاناتها التي تنشر على الشاطئ جولات

طويلة تستغرق الليل كله، أبيع فيها الكثير من البضائع الرخيصة للسكارى: نظارات، ساعات يدوية، قوارير عطور، مناديل ورقية، والسجائر التي كنت أبيعها بالتقسيط. بما كنت أحصل عليه من مال أعول والدتي وأشتري لها ما تحتاج إليه من أدوية. أخرج من حانة لأدخل أخرى. خلال ذلك، ويوما بعد آخر حفظت وجوه الكثير ممن كانوا يرتادون تلك الحانات وتصاحبت مع بعضهم، فأخذت أغريهم بأن يشتروا مني ساعة أو قارورة عطر أو نظارة شمسية. بالبشاشة وحلو الكلام والمعرفة بأمزجة من دارت الكأس برؤوسهم نجحت في جعل الكثيرين منهم زبائن مداومين على شراء ما كنت أعرضه عليهم من بضائع. أصبحوا جميعاً يثقون بي ويصدقون أن ثمن الشيء الذي أعرضه للبيع هو أرخص ثمن مقارنة مع الأثمان التي يطلبها باعة آخرون كانوا ينافسونني في بيع تلك البضاعة. تعجبت لأحدهم وقد اشترى مني نظارة شمسية في الليلة السابقة ثم في الغد طلب مني أن يشتري أخرى. عرفت أن السكر قد أنساه شراءها البارحة. السكارى يبذرون أموالهم، ويشعرون بالمتعة وهم ينفقونها حتى في أمور لا تصلح لشيء. يبددون الوقت بالشراء، وهذا ما كنت أستغله وأنا أعرض بضاعتي عليهم. الإقبال على شراء ما أعرضه من بضاعة لم يكن كثيراً إلا في أول الشهر عندما يتقاضى الموظفون أجورهم، ومع النصف الثاني منه تكاد تخلو الحانات من الرواد، ما عدا (حانة الشاطيء) التي يقبل عليها من يأتون من مدن أخرى، كما يعتبر من روادها الدائمين كل ليلة، بعض الموظفين في إدارة الأمن، الذين يتلقون الرشاوي ممن قبض عليهم وبحوزتهم حشيش أو بودرة، وبعض المدمنين على شرب الخمر، ومن بينهم السكايري، الذي كان يقوم من مكان جلوسه ويقف في وسط الحانة، وعندما يجد أنه على وشك أن يسقط، يحتمي بالحاجز، ويجلس على كرسي فارغ بجوار الجيلالي ضابط الأمن وهو يترنح. ينظر إليه الجيلالي بازدراء، وينتظر منه أن يعود إلى مكان جلوسه.ومن بين رواد الحانة بعض تجار المخدرات، يشربون قارورة

أو قارورتين ثم يغادون الحانة وأنا أسمع أنهم سيقيمون في الفيلا التي على الساحل ليلة من لياليهم الساهرة.

عشت ليل مرتيل، وقد توهجت أضواؤه، وبدا أن كل سكان المدينة يعيشون المسرات، لكنها كانت كاذبة، كما وهج الليل في مرتيل كان كاذبا.

لالة خيرة

هي أمي. على فقري في تلك المرحلة، تصاحبت مع طباخ (مطعم وحانة الشاطيء)، مراد الحسناوي، الذي هو ابن حينا. كان إذا رآني لم أبع شيئا من البضاعة التي بين يديَّ يدرك أن أمي تحتاج إلى الطعام، فيطلب مني أن أنتظر، إلى أن يقدم لي أسماكا يخرجها من مخبإ الثلج، في خفية عن صاحب الحانة السي الغندور، الذي يملك أسطولا للصيد البحري ينطلق من مدينة (المضيق) إلى أعالي البحار. طالما كنت أمر بجوار (حانة الشاطيء) فأرى شاحنة كبيرة تحمل حوتين بطول ثلاثة أو أربعة أمتار من نوع أبي سيف، أو الدجلفين، يتم إنزالها من الشاحنة وإدخالها إلى المطعم لتقطيعها إلى قطع صغيرة يتم الاحتفاظ بها في مخابيء الثلج لتقديمها كوجبات لمن يقصدون المطعم.

كنت آخذ شرائح السمك وأقدمها لأمي لتطهوها مع الثوم والتوابل والصعتر في آنية من الطين، على نار الفحم، وكانت تسألني:

. يا ولدي يا عبد الرحمن، من أين أتيت بهذا السمك؟ إنه لا يباع في السوق، فمن أين أتيت به؟

أقول لها:

. يا أمي أنا أتيت به من مطعم الشاطيء.

يبدو عليها الغضب وتقول لي:

. قل من حانة الشاطيء. هل ترتادها لتشرب فيها الخمر؟

أقول لها:

. يا أمى أنا أرتادها من أجل بيع بضاعتي، لا من أجل شرب الخمر.

ثم أقول لها:

. أتعرفين مراد الحسناوي؟

تقول:

. أعرفه. وما شأنه بما نتحدث عنه؟

أقول لها:

. هو يعمل في مطعم وحانة مرتيل، وهو من يهديني هذا السمك الذي آتي به.

قالت:

. ذاك ولد طيب، لا بأس من مرافقته. أمه جارتنا في الحي، وليته لم يتركها لتبيع القزبر والمعدنوس والنعناع في السوق.

قلت لها:

. يا أمي دخل مراد من عمله في مطبخ المطعم قليل.

موتها كان فجيعة. أول من علم بالخبر، وجاء ليعانقني، هو مرد الحسناوي، فقد ترك عمله في المطعم ووقف بجانبي. هو من دعا من المستشفى الممرض

الذي جاء لفحص المتوفاة وتقديم رخصة الدفن، وهو من ذهب إلى المقبرة لحفر القبر، وهو من اشترى عطور الدفن والكفن، وأتى بالمرأة التي قامت بوضع الكفن على رفاة أمي. أما حسن الديباجي فقد شاركني الحزن، ثم منحني بعض المال لإقامة الجنازة، كما وقف إلى جانبي الأصدقاء إلى أن تم الدفن وشيعنا الجنازة في المقبرة، ثم قاموا باستدعاء الطلبة وتحضير الكسكس. كانوا يرونني ذاهلا، لا أصدق أنني قد بقيت وحيدا، وأن أمي قد أصبحت تحت التراب.

أصبح البيت موحشاً، لا أحد فيه غير صورة أمي وأنا أتذكر كيف كنت أعطيها الدواء وأُشْرِبُهَا من شربة الخضر التي أعدها لها وهي تأخذ مني الملعقة تحاول أن تشرب منها بنفسها. كنت أراها تأخذ الملعقة لتتناول من كوب "دانون"، أما الحليب فكانت لا تحب أن تشربه.

بعد أيام توفيت والدة مراد لالة لأَيْتْمَاس، الريفية، التي كانت جارة وصديقة لأمي، فرغم أن أمي جبلية وأم مراد ريفية، فقد تقاسمتا الكثير من المحبة والاحترام، وتفاصيل الحياة اليومية. عرفت أنها قد ماتت ذلك من بكاء سمعته من دار مراد، فأقبلت على الدار وقدمت له العزاء. تشاركنا في الحزن. ثم مضت الأيام وأخذت أنتظر أن يفرغ مراد من عمله في المطعم، ثم نخرج إلى البحر وكل واحد منا يبكي أمه. نسير على وأنا أستحضر صورة أمي. أكلمها وتكلمني. أبثها شكواي من الغربة التي أصبحت أعيشها بعد موتها. لا ترد علي. يشعشع الحزن في نفسي. أحس بالفقدان. أشعر أنني روح هائم في هذا الفضاء الواسع لا تجد مستقراً لها في مكان. أنظر إلى البحر فتطفر الدموع من عينيّ، فإن رآني مراد على ذلك الحال تطفر الدموع من عينيه. أرى تلك الموجات الصغيرة البيضاء التي تظهر على ضوء القمر وهي تترقرق. أسألها إن كانت تعرف أمي فترد علي بانسيابها الرقيق على حافة الرمل. نعود إلى حينا أنا ومراد. يدعوني للمبيت في بيته. أصبحنا كلما نعود

من جولة البحر الليلية يبيت معي في بيتي أو أبيت معه في بيته. نتحدث عن الغربة، وكل واحد منا يعبر للآخر عن بنات الحي اللواتي لا تجذبن نظراته، ولا تحرك في قلبه ساكنا.

كانت أمي لالة خيرة تعلم بأخلاقي، فأنا لست كباقي شبان الحي الذين يأخذون الفتيات إلى شاطئ البحر ليضاجعوهن واقفين أو مستلقيين على الرمل، كانت تفخر بي لأنني لا أسبب لها تلك المشاكل التي يسببها أولائك الشبان بين الجيران. تقول للجارات ولدي عبد الرحمن عاقل، ولن يعرف فتاة إلا عندما أُزوجه ممن يحب. جارات كثيرات عرضن عليها بناتهن للزواج مني، وعندما خاطبتني في الموضوع فكنت أرفض ذلك العرض.

كنت أخرج إلى عملي فألتقي مع الزبائن ثم أعود إلى البيت مسرعاً، يحثني الشوق إلى رؤيتها وإطعامها وتقديم ما تحتاج إليه من دواء. تعودت على ذلك حتى أصبح جزء من حياتي.

بنات حينا

كانت بعض بنات حينا يقفن عند أبواب البيوت المبنية من الطوب، كما هو حال بيتنا أنا وأمي، فيلقين لي ببعض كلمات الغزل، فلا أبالي بتلك الكلمات وأذهب مسرعاً. لم أعشق ولم يخفق قلبي لأية واحدة من بنات الحي، وحتى الأرملة حسناء التي أخذت تتودد إليَّ تجنبتها ليبقى الاحترام بيننا. كانت أمي الله يرحمها تقول لي:

ـ يا ولدي يا عبد الرحمن، تزوج. لا يمكن وأنت شاب أن تعيش على هذه الحال من العزوبة.

أقول لها:

. يا أمي العزيزة، أنا ليس لي دخل قار أنفق منه عليك وعلى الزوجة.

تسكت وأقول لها:

. بنات اليوم يا أمي لهن مطالب كثيرة. انظري إلى بنات الحي اللواتي تزوجن كيف كن يسرن حافيات أو ينتعلن أحذية من البلاستيك بها يسرن فوق مياه المجاري ثم عندما تزوجن أصبحن ينتعلن أحذية ذات كعوب عالية.

قالت لي:

. هل المشكلة في الحذاء يا ولدي؟

قلت لها:

. المشكلة في المطالب يا أمي. الواحدة منهن تعيش كل حياتها على البصارة في بيت والدها وعندما تتزوج تطلب من زوجها اللحم والدجاج وتقول إن الفول هو أكل للبهائم وليس للبشر.

تقول لي:

. هناك بنات يقنعن بما أعطى الله.

أسألها:

. يا أمي أين هن اليوم أولائك البنات القانعات بالقسيمة والنصيب؟

تقول لي:

. ألا تريد يا ولدي يا عبد الرحمن أن أرى أولادك وبناتك قبل أن أموت؟

أقول لها:

. يا أمي العزيزة، الوقت الآن غير مناسب، والله يطيل في عمرك لتتحسن الأحوال ويفعل الله ما يريد.

البيت الذي عشنا فيه أنا والوالدة، تركه لنا الوالد عندما توفي وأنا صغير. لم أستطع أن أستحضر صورته من ذاكرتي، وأمي لم تحتفظ بصورة من صوره الفوتوغرافية. أتذكر وأنا صغير أن بعض رجال حينا كانوا ينادونني ولد العياشي. كل ما أعرفه عن والدي هو أن اسمه العياشي، أما أمي فلم تكن تحدثني عنه بشيء. من حول البيت الذي نعيش فيه أرض تنبت فيها أشجار التين التي لم تعد تثمر، لكننا في وقت مضى كنا تقطف منها أجود تين أكلته في حياتي. كنا نأكله طازجاً، حلو المذاق، حباته الصغيرة ممزوجة بسائل كالعسل، وقشرته الخضراء يسيل منها ذلك السائل الأبيض الذي كانت الوالدة تقول إنه يداوي الثآليل. من كان له ثؤلول في أحد أصابع يديه فما عليه إلا أن يأخذ من التينة ذلك السائل الأبيض ويطلي به مكان الثؤلول لعدة مرات فيندثر.

كانت أمي تُشَرّحُ ذلك التين وتضعه في أطباق نظيفة لِتُعَرِّضَهُ للشمس حتى ييبس فتخزنه لنستفيد منه في فطور رمضان. نأكله مع شرب الحريرة. على كثرته لم نبع منه شيئاً، فقد كنا نُذِيقُ الجيران منه. كان بعض الأولاد يتسلقون السور القصير ويصعدون أشجار التين ليقطفوا منها، وكنت أطردهم شر طردة. في طفولتي تلك، كنت أحاول أن أَعُدَّ تلك الحبيبات التي توجد داخل التينة فلا أستطيع، وعندما كانت أمي تراني وأنا أفعل ذلك، تقول لي:

. هل عرفت عددها؟

أقول:

. لم أستطع.

تقول لي:

. لا يعلم عددها إلا الله.

في طرف من تلك البستان بئر منها نشرب ونسقي الأغراس، ماؤها حلو، يكون بارداً في الصيف وغير شديد البرودة في الشتاء، وها أنا مازلت أشرب من تلك البئر إلى اليوم، بين وقت وآخر أصب فيها قطرات من قارورة الكلور من أجل التعقيم، فلم يصبني في يوم من الأيام مغص أو إسهال.

بعد أن توفيت الوالدة وتحررت من مسؤولياتها فكرت في الهجرة إلى إسبانيا، غير أن المال المطلوب للهجرة لم يكن متوفراً لدي، كما أنني لا أتوفر على خبرة في صناعة من الصناعات، ولا أقدر على العمل في أشغال البناء. لم أشغل بالي بموضوع الهجرة، وحمدت الله على عملي كسمسار، وما يدره علي من دخل بسيط أقنع به وأنا أنتظر الفرج.

كمال الخليع

أعترف بأن الفضول يستبد بي، وقد اكتسبته من مهنتي كسمسار. فضول نحو من باع أرضا ومن اشترى شقة، ومن يبني عمارة، وما هي التصاميم وكم عدد الطوابق، وهذا الفضول هو الذي قادني إلى أن أتقرب من المهندس البلدي، الكهل الرياضي الذي كنت أراه يمارس الرياضة في (الكورنيش)، يتبعه كلبه الضخم.

يقع مكتب المهندس المعماري كمال الخليع في الطابق الثاني لبلدية مرتيل. دخلت الباب الأمامي ثم نظرت إلى الردهة، ومن يتزاحمون على المصادقة على التوقيع أو إخراج عقود الازدياد. رأيت وردة ابنة الحسنية، التي سقطت في البكالوريا ثم بعد أن انخرطت في الحملة الانتخابية ها هو الرئيس قد وظفها.

عندما رأتني، وأنا أعرف ماضيها، اصفر وجهها وأخذت تأخذ الطوابع وتضربها على الأوراق بكل قوة. تجاهلتها وصعدت الأدراج. وصلت إلى مكتب المهندس البلدي كمال الخليع. طرقت الباب. طلب مني أن أدخل. دخلت. طلب مني الجلوس. أطلعته على خرائط قطعة أرضية، وحيما أخذ ينظر فيها سألته عن قطعة أرضية يرغب في شرائها أحد الأشخاص، وقد قيل لنا إن نهرا يمر تحتها، وسألته هل يستقيم البناء فوقها؟ نظر إلى الخريطة طويلا، ثم قال أخبرني بأن شيئا عن ذلك النهر لم يصل إلى علم البلدية، وأن الأنهار الجوفية لها خرائط جيو أرضية. طمئن المشتري، واتب به إليَّ لأعد له تصاميم البناء. في الغد أتيت بالرجل الذي يرغب في شراء البقعة الأرضية إلى مكتب المهندس المعماري كمال الخليع، فشرح له ما سبق أن شرحه لي. بدا من يرغب في شراء البقعة الأرضية مستريحا إلى المهندس كمال. فرحت باستراحتهما لبعضهما، ولم أتوقعه هو أن المهندس كما قدم لي دعوة لحضور عرسه في يوم السبت القادم. أخذتها منه وأنا أشعر بالفخر، كما عزز ذلك مكانتي عند الرجل الذي يرغب في شراء القطعة الأرضية، فكسبت ثقته. في مساء يوم السبت ذاك ركبت سيارة أجرة ، وقصدت قصر العرائس. عند الباب، استقبلني والد العروس. هو السي السكايري صاحب المخبزات ومحلات الحلويات، تاجر المخدرات. رحب بي. حسبت أنني قد أتيت إلى مناسبة أخرى غير التي دعيت إليها. بعد حين ظهر العريس، هو كمال بنفسه، الذي تجاوز الأربعين، والعروس هي ابنة السكايري التي لم تتجاوز العشرين. أي حب جمع بينهما، وأية مصاهرة يمكن أن تكون بين الرجلين!

عبد الرزاق الأحمر

تابعت تفاصيل هجرة صديقي الحلاق عبد الرزاق الأحمر، الذي يعمل في (صالون ميامي) إلى إسبانيا. كان شرطي إسباني اسمه أنطونيو يعمل على الحدود مع سبتة يأتي إلى محل الحلاقة (ميامي) في مرتيل لرخص ثمنها في مقابل سعر الحلاقة في سبتة، وكان بشوشاً، نمازحه أنا وعبد الرزاق ببعض الكلمات فيمزح معنا. من حسن حظ عبد الرزاق أنه يجيد الحديث بالإسبانية. سأل أنطونيو عن المبلغ المطلوب لإيجاد عقدة عمل، كحلاق، في إسبانيا. أجاب بأنه سوف يبحث في الموضوع ويخبره في زيارة قادمة يأتي فيها لحلق شهره. بقي عبد الرزاق ينتظر تلك الزيارة إلى أن جاءت، فأخبره أنطونيو بأن المبلغ هو ثمانية آلاف أورو، أي ما يقارب تسعة ملايين من السنتيمات بالعملة المغربية.

صفر عبد الرزاق صفيراً عبر من خلاله عن تعجبه لضخامة المبلغ ثم قال:

ـ أَوَّاوْ.

ضحك أنطونيو وقال هو الآخر يقلده:

ـ أَوَّاوْ.

لكنه شرح لعبد الرزاق أن عقدة العمل سوف تجعله يحصل على التأشيرة من قنصلية إسبانيا في تطوان بسهولة، وأنه بمجرد وصوله إلى برصلونة، حيث اتفق له مع صاحب محل للحلاقة هناك، سيجد العمل، وسيسمح له رب عمله بأن ينام في الصالون لمدة شهر ريثما يتقاضى أجره الشهري الأول ليكتري مسكناً. أما عن الأجر فسيمنحه رب عمله ألفا ومائتي أور، أي ما يعادل حوالي مليون وأربعمائة ألف سنتيم. قدم له صورة لصالون الحلاقة الفخم الذي سوف يعمل فيه، وهاتفه المحمول في سبتة، وطلب منه أن يبقى الأمر سريا سواء عزم على الذهاب إلى

برصلونة أو تخلى عن ذلك.

وافق عبد الرزاق على سرية الموضوع وأخبر أنطونيو بأنه مستعد من الغد لأخذ عقد العمل ودفع ثمنه، شريطة الاتصال هاتفياً بصاحب الصالون والتحادث معه لضمان نجاح العملية. وافق أنطونيو، ووعده بأن يأتيه بعقد العمل في المرة القادمة التي يأتي فيها للحلاقة، ثم ضحك وقال له:

. ستكون المرة الأخيرة التي تحلق فيها شعر رجل في المغرب.

غامت عينا عبد الرزاق وقال له:

. أتمنى ذلك.

سأله أنطونيو:

.كم يدفع لك صاحب هذا المحل الذي تعمل فيه؟

رد عليه عبد الرزاق:

. النصف. هو يأخذ نصف أجرة الحلاقة وأنا آخذ النصف الآخر.

. وكم يصل دخلك الشهري؟

. بالتقريب، ألفا درهم تقريباً.

ضحك أنطونيو وقال له:

. في برصلونة سيصبح دخلك الشهري أكثر منه ست مرات. إذا عرفت كيف تعيش بالقليل لبعض الشهور فستستعيد ذلك المبلغ الذي سوف تدفعه من أجل عقدة العمل في شهور قليلة.

. هل الأمر جدي يا صديقي أنطونيو؟

.كل الجدية. إلا إذا كنت لا تتوفر على مبلغ ثمانية آلاف أورو.

أكد له عبد الرزاق أنه يتوفر على المبلغ بالدرهم في حساب بنكي على الدفتر الأزرق، ويمكنه أن يسحبه في أي وقت ليذهب إلى سبتة فيصرفه عند الصرافين بالأورو، وفي أسرع وقت سيكون جاهزاً. قال له أنطونيو:

. هل تخبرني يا صديقي من أين حصلت على هذا المال؟

أحس عبد الرزاق بالحرج. قال له:

. هل تحسبني أتاجر في مخدرات؟

اعترض أنطونيو وقال لعبد الرزاق:

. لا أفكر في ذلك. لو كنت تاجر مخدرات لما بحثت عن عمل كحلاق في صالون للحلاقة في برصلونة.

احتقنت نظرات عبد الرزاق وقال بغضب لأنطونيو:

. ومن أين تحسب أن هذا المبلغ قد جاءني؟ هل ورثته؟ هل نزل علي من السماء؟ هل السماء تمطر ذهبا؟

قال له أنطونيو:

. لا أعرف يا صديقي، ولذلك سألتك.

واتت الفكرة عبد الرزاق، فقد وجد طريقة للجم فضول أنطونيو. قال له:

. أنا أتيت إلى مرتيل من سوق أربعاء الغرب. والدي كان يعمل في ضيعة كبيرة تملكها الدولة بعد أن استعادت ملكيتها من المعمرين الفرنسيين بمغادرتهم أيام الاستقلال.

. وما علاقة هذا بالمال الذي تملكه، مادمت لم ترث أرضاً من والدك؟

. يجب أن تصبر علي حتى أحكي لك.

- تحكي قصة حياتك؟

- إذا كنت غير منزعج من ذلك.

حكى له عبد الرزاق، على مسامعي، أنه رسب لعدة سنوات في الابتدائي حتى طردوه من المدرسة ولما وصل الرابعة عشرة من عمره كان بنفسه يجني البرتقال من الأشجار ويضعه في الصناديق ثم يخرج به ليلاً محملاً في سيارة حتى وهو لا يتوفر على رخصة السياقة فيبيعه بأقل من ثمنه خمس مرات، ثم يكنز الدرهم على الدرهم.

قال لي:

"تعلمت الحلاقة من حلاق وجد محله بسوق أربعاء الغرب في المكان الذي توجد فيه سيارات الأجرة التي تتحرك في اتجاه القنيطرة أو طنجة أو في اتجاه فاس. لدى ذلك الحلاق، الذي أصبحت أعمل معه بالنصف، كثرت حلاقة اللحى والرؤوس، سيما وأن السائقين كانوا ينتظرون دورهم لكي تمتلئ سياراتهم بالركاب لوقت طويل، فكانوا يملئون الفراغ بأشياء كثيرة منها تناول بعض الأطعمة وشرب الشاي والثرثرة مع بعضهم وحتى بعض الخصومات وتبادل الكلمات الجارحة ومنه حلق شعر رؤوسهم أو لحاهم عند الحلاق. الحلاق هو أنا. أفتح المحل في الصباح الباكر.

أول ما أقوم به هو كنس ما اجتمع من شعور على الأرض، وتنظيف بعض الفوطات أو الملابس الواقية من تساقط الشعر المقصوص على ملابس الزبناء، التي نضعها عند الحلاقة فوق ملابسهم. ثم أنتظر رزقي، أنا عبد الرزاق. أقول يا فتاح يا كريم يا رزاق يا عليم. يأتي الزبون الأول، وهو سائق سيارة طاكسي. عندما أفرغ من حلاقة لحيته يكون اثنان من سائقي سيارات التاكسي في الانتظار.

وما تصل الساعة العاشرة صباحاً حتى أكون قد حصلت على مبلغ لا بأس به من حلاقة الرؤوس واللحى. يأتي صاحب المحل لأقتسم الدخل معه دون أن أخفي عنه شيئا، لأنني أعرف أنه يستطيع أن يكشف كذبي وأن يرميني إلى الشارع، فأنا أعرف أنه لا يثق بي ويسأل إن جاء إلى المحل من حلقوا لحاهم أو رؤوسهم، وحتى إن لم يسأل، فهو فطن بنظرة من نظراته يعرف كل شيء. وليس هذا ما كان يشغل يومي، فقد كانت أيام الصيف تشتد فيها الحرارة ويكثر الذباب في كل جهات سوق أربعاء الغرب، ولذلك يقف المسافرون عند المحطة الطرقية، حيث الجزارون الذين يُعَلِّقُون أغناماً مسلوخة وأنصاف أبقار أو عجول وقد غطاها الشحم حتى لم يظهر منه اللحم، وهم يشوون الكفتة والكوطليط، يستعملون من يهش على الذباب طوال اليوم والنهار. يأخذه النوم فتتباطأ حركة يده وهو يهش. يكل ساعده وهو ينش. ينش على ذباب لا يراه، أو قل إنه لا يرى شيئاً وكل ما يراه هو حركة يده التي تنش. ينام ويحلم. في نومه وأحلامه يترك ليده أن تنش على الذباب، والذباب يطير عندما تصيبه حركة النش ثم يعود ليحط على اللحم. ولا يهم أمر ذلك الذي يحصل على قوت يومه من النش على الذباب أمام حانوت الجزار، كما لا يهم الجزار نفسه الذي أعرف أن تجارته تقوم على بيع الشحم مع اللحم والعظم، لذلك فهو يتخلص من الكثير من الزوائد ومن الشحم عن طريق الكفتة التي يكون ثلثها لحم وثلثها الآخر شحن والثلث الباقي جلود وأعصاب وأشياء أخرى تطحنها المطحنة مع كميات من البصل والتوابل والبقدونس تنسجم مع بعضها في عملية الطحن، ولكن، عندما يضع الكفتة في المشواة ويرتفع الدخان مُحَلِّباً للريق يأتي الجياع من سائقي الشاحنات ومن المسافرين الذين لم يختاروا السفر عبر الطريق السيار ليتوقفوا في محطات الاستراحة فيطلبون الشواء، وهو شواء إن كان من لحم غنم فالجزار بساطوره يهوي على لحم الخروف ليجعل منه كل المناطق صالحة للشيّ، وإن كان الزبون يحب لحم خروف

ناضج على البخار فالجزار يُنْضِجُهُ في الماء مسلوقاً ليثقل وزنه ثم لا يطيل إنضاجه في الكسكاس على البخار فيقدمه للزبائن. حيل الجزارين عرفتها، وهي حيل بسيطة، لا ترقى إلى ما يفعله اليوم أناس في الدار البيضاء يحشون مصارين الدجاج بلحوم الفئران المصطادة من المجاري أو بلحوم الجيف ثم يبيعونها بالأطنان إلى محلات السندويتشات التي تنتشر في كل مكان. أما في أماكن العبور الأخرى فالشواؤون يشوون لحوم حمير ميتة مطحونة على أنها كفتة ويقدمونها للعابرين، فما يأكلها العابر حتى يشعر لبعض الوقت بأنه يدخل في غيبوبة، فقد ارتخت ركبتاه وفقد كل سيطرة على حركاته. لا ينفعه في هذه الحالة سوى أن يشرب ماء كثيرا لكي يقيء ما في معدته، وإن لم يقئ ذلك الشيء اللزج فقد توفاه الله، حتى وإن قاءه فلن يسترد عافيته إلا بعد ثلاثة أيام من الاكتفاء بشرب الماء وافتعال التقيؤ، لأن ما دخل معدته جيفة حمار. لذلك فما يفعله الجزارون وباعة الشواء في سوق أربعاء الغرب هو أكثر رحمة بالزبناء، رغم الثلث والثلث والثلث، ففي الأخير، يمكن أن يصاب الزبون بعسر الهضم، لكنه لن يتسمم بسموم لحوم الفئران والجيف من الدجاج والحمير النافقة.

أنا الحلاق عبد الرزاق، محب أكل اللحم، فالضيعة التي كان يقوم عليها والدي تقع على ضفة نهر سبو. لذلك تعلمت السباحة في النهر وأنا صغير. كنت أقطعه من ضفته التي توجد عليها ضيعة البرتقال إلى الضفة الأخرى دون عناء. وكنت في أيام الربيع عندما يكثر سمك الشابل في النهر أصطاده بطريقة ليس فيها أي عناء. أخذ قارباً إلى وسط النهر ثم أثقله بعلب الزيت المليئة بالحجر والاسمنت حتى يرسو في وسط النهر. أتركه وأعود سباحة إلى الضيعة. أعرف أن السمك الذي ينط في وسط النهر قد يخطئ في قفزه على صفحة الماء فيقع في وسط القارب ويبقى هناك. أعود سباحة إلى القارب فأجد ثلاث أو أربع سمكات كل

واحدة منها تزن من ثلاثة إلى أربعة كيلوغرامات، وهي ما تزال تتقافز داخل القارب. آخذ واحدة منها إلى أمي لتزيل عنها البشر والأحشاء ثم تقلي منها وتطبخ فنأكل من السمكة لغذائنا وعشائنا، أما السمكات الباقية فكنت أقف على طريق السيارات وقد وضعت في خياشيمها دُوماً أمسكها منه ليتوقف من يشتريها مني بمال كثير. كانت أياماً جميلة".

سأله أنطونيو:

. أمن تلك الأيام الجميلة جمعت ذلك المال؟

أجابه عبد الرزاق:

. ها قد فهمت.

قال أنطونيو:

. وما الذي جاء بك لتعمل حلاقاً في مرتيل؟

. قال عبد الرزاق:

. تلك الأيام الجميلة لم تدم طويلاً، فقد رفعت الأملاك المخزنية يدها عن الضيعة واكترتها للخواص، كما أن سمك الشابل قد ندر وجوده في النهر.

قال أنطونيو:

. لو كنت مكانك لفتحت بذلك المال محلاً للحلاقة، بدل أن أعمل بالنصف مع صاحب المحل.

رد عليه عبد الرزاق:

. هو مال خبأته لمثل هذه الظروف.

ضحك أنطونيو وقال له:

. في برصلونة ستحصل على مال كثير وتنسى قلة الرزق في محل الحلاقة هذا. لكنك لن تنسى هذه الذكريات التي تقصها علينا أنا وصديقك عبد الرحمن.

تواعدا في يوم الغد، لكي يسلم عبد الرزاق المبلغ، ويأخذ العقد الذي سوف يصل عبر الإنترنيت ليبدأ اتصاله مع القنصلية الإسبانية للحصول على التأشيرة، وليتحدث بنفسه مع رب العمل الذي ينتظر وصوله إلى برصلونة. خرج أنطونيو من محل الحلاقة. بدا عبد الرزاق مهموماً. قلت له:

. ألا تفرح وقد تيسر لك كل ما تريد؟

قال لي:

. ثمة سؤال يخامرني.

. ما هو؟

. هذا الإسباني أنطونيو أخبرني بأنه شرطي على الحدود في سبتة، وأنا سمعت أن شرطة الحدود سواء كانوا مغاربة أو أسبان، لا يجوز لهم العبور إلى الجهة الأخرى.

قلت له:

. لكنه يأتي إلى مرتيل بالزي المدني، ولاشك أنه يتوفر على جواز سفر وتأشيرة أو رخصة للعبور.

بدا أن ما قلته قد أزاح شيئاً من الهم من صدر عبد الرزاق. ثم تنهد وقال لي:

. هل صدقت أن المال الذي معي هو مال أتيت به من سوق أربعاء الغرب؟

قلت:

. صدقت ولم أصدق.

قال لي:

. سأصارحك يا عبد الرحمن.

. صارحني. سرك في بئر.

. كنت أستغل يوم عطلتي الأسبوعية من العمل في محل الحلاقة فأذهب إلى سبتة.

. لتأتي ببعض البضاعة المهربة؟

. تقريباً.

. ما معنى تقريباً؟

. كنت أشتري بعض الغرامات من الكوكايين ثم أبيعها هنا في مرتيل.

. الكوكايين؟

. الكوكايين. أدخل سبتة خالي الجيوب إلا ما معي من مال ثم أخرج وأنا أحمل في أحد جيوبي تلك الغرامات من الكوكايين، التي لا يشك رجال الجمارك في وجودها في ذلك الجيب.

. غامرت.

. كانت تلك المغامرة، في كل مرة، تكاد تنتهي برميي في السجن، لكن الأمور سارت على ما يرام. هل سري في بئر؟

. سرك في بئر.

. لكني أخشى أن يكون أنطونيو نصابا فيعطيني عقداً زائفاً.

. أعطه نصف المبلغ، وأجل دفع النصف الآخر إلى حين أن تذهب إلى القنصلية الإسبانية في تطوان لتتأكد من صحة العقد، وساعتها ادفع له النصف الآخر.

. لا أدري لماذا لم يخطر ذلك على بالي. أنت يا عبد الرحمن صديقي. تصدقني النصيحة، وسأرد جميلك بأن أرسل لك عقد عمل مجاني حالما أستقر في برصلونة.

قلت له:

"أنا لا أتقن صناعة أو حرفة، وصحتي لاتساعدني على العمل في أشغال البناء، كما أنني أربأ بنفسي من أن أعمل كعامل للنظافة، فما الذي سوف أفعله في إسبانيا؟ أطوف حول العمارات على متن سيارة لأجمع القمامة، أو أن أقوم بتنظيف المراحيض. هل أستطيع أن أعمل سمساراً في إسبانيا، أنا صاحب العلاقات الواسعة هنا في مرتيل؟".

قال لي:

. لا تحزن يا صديقي.

قلت له:

. أنا لست حزيناً، بل أنا فرح لكون أبواب الرزق سوف تُفتح لك في برصلونة.

قال:

. حالما أصل إلى هناك سوف أكلمك بالهاتف.

قلت له:

ـ كلمني لأطمئن على أحوالك.

في اليوم التالي جاء أنطونيو ومعه العقد. بعد تلكؤ قبل أن يأخذ نصف المبلغ ويؤجل نصفه الآخر إلى ما بعد حصول عبد الرزاق على التأشيرة. هكذا نجحت العملية، وسافر إلى إسبانيا. لم يخبر أحدا غيري، وعندما لم يأت إلى (صالون ميامي) جاء صاحبه بحلاق آخر. بعد أزيد من شهر جاءتني مكالمة هاتفية منه. أخبرني بأن كل شيء على ما يرام. بعد عام عاد عبد الرزاق إلى مرتيل، وكان أول من بحث عنه هو أنا. ما التقينا حتى تبادلنا القبلات، ودخلنا في الأحاديث. لم يكن لي شيء أخبره به عن مرتيل، فدار لقمان على حالها، بينما أخبرني عن عيشه في برصلونة وحصوله على شقة صغيرة في حي شعبي يسكنه المغاربة، يبعد عن وسط المدينة، لكن سهولة المواصلات تسمح له بأن يحضر إلى عمله في الموعد. بدا نَيِّرَ الوجه طلق المحيا، وقد تغير لون بشرة وجهه من ذلك الاصفرار إلى حمرة مشربة بالدم. سألته:

ـ هل تأكل في برصلونة لحم الخنزير؟

استنكر سؤالي وقال:

ـ في برصلونة يوجد جزارون مسلمون يذبحون الذبح الحلال.

قدم لي بذلة وحذاء رياضيين كهدية. أخذته معي إلى بيتي في حي (أحريق) فأعددت عشاء من سمك الشطون في "التويگرة"، وهو الطعام الذي تختص به مدينة مرتيل عندما يكون سمك الشطون في غاية الطراوة وأنا من يتقن إعداده. أضع سمكات الشطون في القدر الطيني ثم أضع عليها الثوم والقزبر المقصوصين والتوابل والملح والزيت ثم أقص عليه طبقة كثيفة من المعدنوس وأضع فوق تلك الطبقة أشطاراً من الطماطم والليمون وأنضج "التويگرة" على نار خفيفة. أكل

صديقي عبد الرزاق كأنه قد ظل جائعا لعدة أيام أو شهور. لكنه سألني:

ـ هل هذا الماء الذي شربناه من البئر؟

قلت له:

ـ هو من ماء البئر.

قال:

ـ أخشى أن يكون ملوثاً.

قلت وأنا أضحك:

ـ لا تخف يا صديقي، فقد قضيت عمري كله وأنا أشرب من ماء البئر، ولم يصبني مرض أو إسهال.

قبل أن يخرج أعطاني خمسين أورو. بعد تلك الليلة التقينا في المقهى عدة مرات، كانت آخرها هي التي ودعني فيها وهو يقول:

ـ غداً سأعود إلى برصلونة.

قلت له:

ـ تسافر بالسلامة.

عانقني وعانقته. كادت الدموع تطفر من عينيه وهو يمشي. تمنيت له من كل قلبي أن يعيش سعيدا في برصلونة، وحسبت أنه إن حصل على تلك السعادة فسوف يأتي عليه يوم يتزوج فيه شابة إسبانية تُزيد من سعادته إن أخلص لها في الحب.

عبد الله الترغي

يعرف في مرتيل باسم عبد الله. قيل لنا إن أصله من (ترغة)، وقد أتى منها إلى مرتيل قبل أن يغادرها الأسبان. شيخ عجوز ذو لحية كثيفة تسترسل فوق صدره. يرتدي جلبابا مكونا من خرق خيطت مع بعضها، هي خرقة الصوفي. يحمل في يده عصا غليظة، يتكيء عليها حين وقوفه، أما وهو يسير فيرفعها قليلا عن الأرض. في خرقته الصوفية المرقعة يتوحد مع جسده، وهي لا تحيل على مكان أو زمان لأنه بارتدائها يعيش في كل الأمكنة والأزمنة، ضاربا عُرض الحائط بما يشغلنا به زماننا من ثورات هي التي أطلقوا عليها ثورات الربيع العربي.

حينما لقيته في الشارع صدفة، أول لقاء، أدهشني أن أرى متصوفا في زمن تكالب فيه كل الناس على الانغماس في الحياة ومكاسبها المشروعة وغير المشروعة. أول ما رأيته تبادلنا النظر. نظرته إلي كانت أشبه ببرق خُلَّبِ خَلَبَ بصري. كان يرتدي خرقة الصوفي المرقعة. على شيخوخته كان وجهه جميلا أبيض مشربا بالدم، لا تظهر عليه التجاعيد، فقد كان يحمل على ذلك الوجه الجميل براءة طفل. عينان زرقاوان وجبين ناصع عليه نور من الأنوار الإلهية. قوي البنية عريض الكتفين، سوالف من شعره الذي وَخَطَهُ المشيب تتدلى على كتفيه. أدهشني منظره وهو ناصع الجبين طلق المحيا. أوقفني في عرض الشارع وقال لي:

ـ أنت عبد الرحمن؟

قلت له:

ـ أنا هو. هل تعرفني؟

قال:

ـ أنت عبد الرحمن النادي، السمسار. أعرفك. أنت عبد من عبيد الرحمن. أريد أن تشتري لي حصيراً وبطانية.

سألته:

ـ وما حاجتك إليهما؟

قال:

ـ سآخذهما إلى ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش لأجاور مقامه.

في ذلك الوقت لم يكن معي مال لشراء البطانية والحصير. فكرت ملياً ثم قلت له:

ـ تعال معي.

سرنا إلى السوق فأخذت من البائع حصيراً وبطانية بالدين وأعطيتهما له. أخذهما وقال لي:

ـ أنت لا تعرفني وأنا أعرفك. أعرف كل سكان هذه المدينة واحدا واحدا، حتى الأجنة في بطون الأمهات أعرفها. أعرف الشجر والحجر والطير وكل ما خلق الله.

سألته:

ـ ومن أنت؟

قال:

ـ أنا عبد الله.

قلت:

ـ ولقد عرفتني، فأنا عبد الرحمن.

قال لي:

. أنت عبد الرحمن النادي، السمسار، ولكن لا تنس أنك عبد من عبيد الله.

قلت:

. الله هو الرحمن.

قال:

. من عبيده من يعبدونه ومنهم من يرتكبون الذنوب والمعاصي. ينسون إن العيش في الكشوف والتجليات والرؤى هو أفضل ألف مرة من انتهازهم لما في هذه الدنيا الزائلة.

سألته:

. وما الطريق إلى ذلك؟

قال لي:

. ترك العَرَض والعيش في الجوهر.

لم أفهم كثيرا مما قال، وحسبته يهذي بكلام غريب. صرف نظره عني حينما لم ير في عيني علامات الفهم، ومشى كالهارب يحمل الحصير والبطانية. اختفى بسرعة. وعدت البائع بأن آتي بعد يومين لأقدم له ثمن الحصير والبطانية. وافق على ذلك، لكنه قال لي:

. هذا المسكين لا عقل له، وأنت سايرته فيما يريد. هل تعرف أنه كل يوم يأتي بمن يشتري له حصيرا وبطانية؟

سألته:

. هل هو محتال؟

رد علي:

. لم أقل ذلك. قلت لك إنه لا عقل له.

لم أندم على ما فعلت. مضت شهور فنسيت الأمر، خلالها لم أقابل عبد الله، إلى أن جاء يوم كنت أعبر فيه الشارع فسمعت من يناديني:

. عبد الرحمن.

التفت فرأيته يقف على الناصية الأخرى للشارع وهو يبتسم بوجهه الوضيء ونظرات عينيه المشعتين. قطعت الطريق وجئت إليه. قال لي:

. يا عبد الرحمن، أريد منك أن تشتري لي بطانية وحصيراً.

سألته:

. وما الذي فعلته بالبطانية والحصير اللذين اشتريتهما لك؟

قال:

. وهبتهما في ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش لعبد آخر من عبيد الله، لم يجد من المحبين من يشتري له بطانية وحصيراً.

قلت له:

. دعني الآن، فأنا لا أملك ما أشتري لك به ما تريد.

بدا الحياء على وجهه حتى تَوَرَّدَ بالدم، وظهر أمامي كمن يعتذر عن خطأ ارتكبه. ارتبكت ولم أدر ما علي أن أفعل. تركني ومشى. وقفت في عرض الطريق وأنا أشعر بالحيرة، نادما على عدم تلبية طلبه. في ذلك الندم الذي طال أياما تمنيت أن ألقاه في الشارع لأشتري له البطانية والحصير، فلم ألقه. قلت في نفسي إن في تلبية ما يطلب سعادة له وبركة لي تجلب الرزق والصحة والسعادة، وقلت

إن إسعاد متصوف يرتدي الخرقة المرقعة هو من باب التقرب إلى تلك السعادة الأبدية التي ينشدها جميع الناس، وحتى وإن كانت لا توجد، فقد نتوهم أنها توجد، ومن أجلها لن نخسر شيئا إذا ما تقربنا من ذلك المتصوف بشيء من القربى، علنا نقترب من عالمه الذي يعيش فيه، وهو عالم غير دنيوي.

اشتد بي الندم، ومرت الأيام. سألت عنه نادل (مقهى الياسمين) عبد المولى فأخبرني بأنه يسكن في كوخ يوجد عند نهاية (الكورنيش). ذهبت إلى ذلك المكان فوجدت كوخا من قصب وبقايا زنك وقصدير حسبته هو ذاك الذي يستقر فيه عبد الله، لكني وجدت بها كهلا يشرب الكحول، هو غير عبد الله. سألته عنه فقال لي هو كالريح تهب ثم لا يعرف أحد إلى أين يذهب هبوبها. بقيت متحسراً، أتمنى أن ألقاه وأحقق له طلبه.

مضت شهور وأنا أتذكر عبد الله بين حين وآخر، إلى أن جاء يوم فرأيته في الشارع يمشي وهو يحمل بطانية وحصيراً. أوقفته فقال لي:

ـ أنت عبد الرحمن؟

قلت له:

ـ أنا هو.

قال:

ـ الله هو الرحمن. لن أطلب منك شيئاً. عبد من عبيد الرحمن اشترى لي هذا الحصير وهذه البطانية.

مشى وتركني. مضت شهور أخرى فالتقيت به في الشارع. عندما رآني جاء يقترب مني. حسبته سوف يطلب مني أن أشتري له الحصير والبطانية، لكنه مد لي يده فأظهر خواتم ذهبية على راحته. عجبت لذلك، وسألته:

. من أين حصلت عليها؟

بدا عليه الغضب وقال لي:

. من عند الله. هل تحسبني سارقا؟

طمأنته، فأخذ خاتما من تلك الخواتم وقال:

. يا عبد الرحمن، خذ هذا.

الخاتم من ذهب، عليه فض أسود من حجر كريم. خاتم رجالي. رآني أتردد في أخذه فقال لي:

. خذه. لقد رأيت أن لدي منه الكثير، وأنا لا أحتاج إلى هذه الخواتم، فأوزعها على من يحتاجون إليها.

ابتسمت وقلت له:

. لكنك لم تخبرني من أين أتيت بهذه الخواتم؟

تغيرت نظراته إلي وقال بغضب:

. قلت لك أنا لست سارقا. الخواتم أهداني إياها واحد من عبيد الرحمن، فبت ليلتي في ضيق لأنني لا أحب الذهب، ولا أجد ما أفعل به.

سكت لحظة، ثم قال لي:

. تصور يا عبد الرحمن أنني قد وضعت كل هذه الخواتم في أصابع يديّ، ألا يحسبني الناس قد جننت؟

قلت له:

. حاشا لله. كل الناس في مرتيل يعرفونك عاقلا.

قال:

. هذه الخواتم بلاء سلطه الله عليّ. أحدهم أراد أن يتخلص منها فأعطاني إياها، لكني لم أعرف ما أفعل بها. أردت أن أوزعها على من يرغبون فيها، وها أنت لا تحب أن تأخذ واحدا منها.

ألح عليّ في أخذ الخاتم فأخذته. تركني ومشى. وضعت الخاتم في بنصر يدي اليسرى، ثم رأيت أنه لا يناسبني، بل يناسب أحد الأثرياء. بعد أيام بعته بألف درهم. ولكن، من أين أتى عبد الله بكل تلك الخواتم؟ بقى هذا الأمر سرا من أسراه.

بعد أيام التقيت به، فأوقفني وطلب مني أن أشتري له حصيرا وبطانية، فاشتريتهما له. أخبرني بأنه ذاهب، ولم يكن إلى أين، فتمنيت لو استطعت أن أذهب معه إلى حيث يذهب.

الراقصات

هن بنات حينا، أعرفهن واحدة بعد أخرى، وأعرف أمهاتهن وآباءهن وإخوتهن. بعضهن عرفتهن وهن صبيات ثم كبرن وأصبحت يركبن السيارات مع الشبان وخلال الليل يجتمهن عند باب بيت إحداهن فتأتي سيارة نقل لتأخذهن إلى المراقص حيث يرقصن ويصطن الرجال. مهما تسترن، وادعت أسرهن الشرف والعفة.

كان حسن الديباجي يذهب إلى المراقص والحانات الليلية، ويحدثني عما يراه هناك. رغم أنه كان يعلم أنني أقوم لصلاة الفجر في المسجد، فقد ظل يحدثني عن

بنات حينا وما يراه منهن في لياليهن الحمراء، وهن يرقصن على موسيقى صاخبة. ذكر لي بنات العسولي وهو صاحب مرأب لإصلاح السيارات، لبنى وحسناء وهند، وبنتا رحيمة الممرضة نسرين ونهاد، وبنتا صاحب مخبزة ومحل للحلويات، لا يخرج من (حانة الشاطئ) كل ليلة إلا عند إغلاقها، اسمهما بديعة وربيعة. حمى الرقص تستبد ببعض البنات وهن يرتمين نحو الأرض يلقين يشعورهن الطويلة المسرحة ثم تنهضن واقفات وهن يرددن مع المغني:

ـ أهاي هاي هاي. الله يا ربي الله يا ربي الله يا ربي الله.

أخبرني حسن بأنه ذات ليلة راقص نسرين ابنة رحيمة الممرضة في مستوصف مرتيل. عندما انتهيا من الرقص جاءت معه لتجلس المائدة، حدثته عن أمها التي تقوم بالاجهاض في بيتها مقابل ألف درهم لكل عملية، وأنها لا تشعر بخطر أن تموت إحدى البنات على يدها. قال إنه هون عليها الأمر، وأخذ يداعب شعرها الفاحم المرتخي على كتفيها العاريين. نظرت إليه بعينيها النائمتين، وارتخت على كتفه. جاءت نهاد وأخبرت أختها نسرين بأنها قد اتفقت مع رجلين على أن تقوما معا بمرافقتهما. تركته وذهبت مع أختها. رآهما ترقصان مع الرجلين في الحلبة، ترخين شعورهن نحو الأرض، وترددن مع المغني:

ـ آهاي يايياي. الله يا ربي الله يا ربي الله يا ربي الله.

سألته:

ـ قل لي يا حسن، هل كنت ترغب في أن تضاجع نسرين ابنة رحيمة؟

قال:

ـ كنت أرغب في ذلك.

سألته:

ـ وزوجتك؟

قال:

ـ زوجتي تهجرني في الفراش منذ أكثر من عام، وأنا ضاق بي الحال. طوال هذه المدة وأنا أشغل نفسي بكتابة الشعر، وأحاول أن أنسى رغباتي، ومع ذلك فزوجتي تتهمني بالعلاقات مع النساء. لا أستطيع أن أقدم على الطلاق، فأنا أب لولدين، ولا أتحمل ما يعانيه جسدي من حرمان حرمان.

قلت له:

ـ ما كان عليك أن تقترب من نسرين ونهاد بنتي رحيمة، فأمهما فضائحية وقد تسبب لك الفضيحة.

ـ قال:

ـ لا أظن أن الأمر سوف يصل إلى أمهما. ثم إنني لم أفعل ما يأتي بالفضيحة.

أمي الزاهية

كانت تعيش وحيدة في حينا، في بيت واطيء يوشك على السقوط، من حوله أرض عارية تقدر مساحتها بحوالي الخمسمائة متر، قامت من حوله العمارات وبقي معزولاً وسطها. كل المضاربين في العقار يطمعون في شراء الأرض، وكثيرون منهم اتصلوا بي لإقناعها بالبيع، لكني لم أتجرأ على ذلك حتى لاتظن بي الظنون. ثم إن أولادها الذين غادروا مرتيل وتركوها وحيدة، لن يتم أي بيع إلا بحضورهم وموافقتهم. ذلك ما جعلني أرفض كل تدخل في هذا الأمر، واكتفيت بالجانب الإنساني، فأنا من يتولى أمرها بعد أن تخلى عنها ولداها وبنتاها. مريم وزليخة

هاجرتا إلى إسبانيا، واحميدو يعمل في إصلاح سفن الصيد في ميناء العرائش، يغيب عن والدته لعدة شهور، وعبد المجيد يعمل نادلاً في إحدى الحانات بطنجة، وعلى قرب المسافة بين طنجة ومرتيل فهو كما يقول لا يجد الوقت لزيارتها فإن جاء لرؤيتها ليوم فسيعود لعمله في الحانة ليجد صاحبها قد أتى بنادل آخر ليقوم مقامه.

عندما اشتد عليها المرض أصبحت لا تقدر على الخروج السوق لشراء قوت يومها، فهي مريضة بالقلب، فأشفقت عليها وجعلتها بمثابة أم لي. أزورها كل يوم لأتفقد أحوالها فتعطيني من المال ما أشتري لها من السوق حاجتها إلى الطعام، وأحياناً أطبخه لها بنفسي. إن اشتد عليها المرض أرافقها إلى طبيب القلب والشرايين في تطوان، والأدوية التي تحتاج إليها لا يوجد بعضها في الصيدليات، وخاصة دواء يسمى "بلافيكس"، فأذهب إلى سبتة لشرائه من إحدى الصيدليات هناك وأعود به إليها.

حتى وإن كانت لديَّ أشغال فأنا لم أفرط في أمي الزاهية، أضبط لها جهاز التلفزيون على القنوات لتستأنس بالبرامج في وحدتها. أصغي إلى شكواها من أولادها. أعرفهم جميعاً، فهم من أبناء الحي. أحياناً تحكي لي بعض الأشياء التي تتذكرها عن زوجها، ثم تعبر لي عن الألم الذي تشعر به بسبب تخلي أولادها عنها. أمور كانت تحكيها لي عدة مرات فأتظاهر بأنني أسمعها لأول مرة، حتى وإن كنت أحفظها عن ظهر قلب. تقول لي:

- يا عبد الرحمن، أنت لم تخرج من رحمي ولكنك أفضل من أولادي وبناتي.

أقول لها:

- يا أمي الزاهية هم أولادك رغم كل شيء، أما أنا فجرد جار في الحي،

أحببتك كما أحببت أمي لالة خيرة الله يرحمها، وجئت لكي أخدمك كما كنت أخدمها إلى أن توفاها الله.

تقول:

. فيك الخير يا عبد الرحمن. خير لم أجده في احميدو وعبد المجيد ومريم وزليخة.

أقول لها:

. يا أمي الزاهية. هذه الدنيا فانية. متعيهم برضاك. دعواتك لهم بالصلاح والفلاح قد تعيدهم إلى طريق الصواب، ولا تنسي أن الغائب حجته معه.

يبدو عليها الغضب. تتوتر عروق عنقها وتنفخ. يصيبها بعض الرعاش في أطراف أصابعها. تقول:

.كيف أرضى يا عبد الرحمن عن أولاد حملت بهم ووضعتهم وكَبَّرْتُهُم وربيتهم ولما توفي والدهم لم أتزوج، فبقيت أرعاهم؟ مات والدهم وأنا في شبابي. ضحيت بكل شيء من أجلهم. وها هم قد كبروا وراحوا ونسوني. حتى حقهم في أرث والدهم لا يسألون عنه.

تواتيني الفرصة لأسألها:

. الأرض في اسم من؟

. في اسم المرحوم زوجي.

. مُحَفَّظَة؟

. اشتراها بالملكية.

. ولماذا لا يطالب أولادك بحقهم في الإرث؟

ـ لأنهم يتخاصمون على القسمة، وكل واحد يريد أن يستأثر بأكثر من نصيب الآخر. وإن باعوا الدار والأرض فهم سوف يرمونني إلى الشارع.

ـ لا يا أمي الزاهية. تعرفين أنني سمسار. خبير بالبقع الأرض الأرضية وما تساويه اليوم. لو بعتم هذه الأرض واقتسمتم ثمنها لاشتريت لك بنصيبك شقة على الكورنيش، تطل على البحر، ولفرشتها لك بأحسن المفروشات.

ـ كثر الله خيرك يا عبد الرحمن. أنا ألفت الحياة هنا. في هذه الدار عشت مع زوجي وأنجبت منه أولادي الأربعة. أنا لا أحب الحياة في الشقق.

أغير الموضوع في اتجاه آخر، وأسألها:

ـ هل تتناولين الأدوية بانتظام؟

تقول:

ـ أتناولها.

ـ ألم تعودي تشعرين بتلك الوخرات في قلبك؟

ـ ما زلت أشعر بها. ذلك الرشاش أرش منه تحت لساني كلما شعرت بالاضطرابات القلبية. رغم أنه حارق لما تحت اللسان فالإضرابات تتوقف.

ـ سلمت يا أمي الزاهية. حافظي على صحتك. الطبيب أخبرنا بحاجتك الصحية إلى أمرين، أولهما أن تحتاطي في تغذيتك من تناول الدهون، والثاني أن تخرجي للمشي ساعة كل يوم.

ـ الطبيب قال كلمته، ولكن أنا لا أستسيغ ذلك الطعام الخالي من الدهون، وركبتاي بسبب الروماتيزم لا تسعفانني على المشي.

ـ يجب أن تقاومي يا أمي الزاهية من أجل البقاء في الحياة. التزمي بالحمية،

والروماتيزم سوف آخذك إلى طبيب لمعالجته حتى تقويين على المشي.

ـ يا ولدي عبد الرحمن الوقت فات. أنا أتعايش مع أمراضي.

ـ لا أحد يا أمي الزاهية يكره أن تطول به الحياة وأن يعيش عمراً طويلاً وهو صحيح معافى.

طبخت لها ما تحتاج إليه من طعام. قبلت رأسها ويديها وخرجت راضياً مرضياً، أشعر بسعادة غامرة.

جاء يوم أغرق فيه البحر مدينة مرتيل حتى وصل مَدُّهُ إلى أقصاه. كل المقاهي التي توجد على الشاطئ غرقت. (حانة الشاطئ) غرقت. (فندق نجمة البحر) غرق طابقه السفلي الذي يحتوي على المقهى والحانة والمطعم ومكتب الاستقبال. تجاوز المد (مقهى اليمامة) و(صالون ميامي للحلاقة) و(مقهى الياسمين)، ودخل دكان عبد الرحمن فأغرقه. ساحة المسجد غرقت في الماء. كل الطوابق السفلية للعمارات غرقت في الماء. (البنك الشعبي) غمره الماء. من الجهة الشمالية، غطى ماء البحر (الكورنيش) وجزء من (حي كريمة)، ومن الجهة الجنوبية فقد غرق (حي الديزة) تماماً. هو البحر غضب من المدينة فجاء يُغرقها.

في نهار ذلك اليوم من شهر ديسمبر، بدت المدينة شبه خالية من تلك الحركة التي تعرفها الشوارع والمقاهي، فقد ظهر انقباض شديد في الجو. غيم داكن أخفى أشعة الشمس عن المدينة. كان يوماً من أيام عطلة رأس السنة. الطلبة الجامعيون غادروا المدينة كما غادرها الموظفون الذين ينتمون إلى مدن أو جهات أخرى، فأغلقت البلدية والمكاتب الإدارية أبوابها وقَلَّ عدد من يجوبون الشوارع. الأسبان الذين يعيشون في المدينة غادروها لقضاء ليلة عيد الميلاد مع ذويهم في سبتة أو قادس أو إشبيلية مستغلين فرصة تلك التخفيضات التي تعلن عنها

شركات الملاحة البحرية في سبتة، ولم يبق بالمدينة سوى التعساء مثلي، الذين لا أهل لهم يسافرون إليه ولا مال لهم يسافرون به. أنا وهؤلاء من أراد البحر في مساء ذلك اليوم أن يُغرق بيوتنا وفي ليلة ذلك اليوم كانت قد غرقت.

عشت في بيتي في (حي أحريق) عزلتي بعد أن وجدت أن المساء لا يغري بجلسة في المقهى أو حديث مع الصحاب. سمعت هدير البحر يقترب من أذني كما لم أسمعه من قبل. أرهفت السمع. وجدت أنه ليس ذلك الهدير الذي تعودت على أن أسمعه في ليالي الشتاء. حسبت الأمر يتعلق بعاصفة بحرية. لم يهدأ لي بال. خرجت إلى باب الدار. رأيت ماء البحر يغطي الزقاق وهو يقترب من أن يدخل الدار. أخذت قصبة قست بها درجة ارتفاع الماء فكان يرتفع. خرج مراد الحسناوي ونظر إليَّ متعجبا، وقال:

ـ لم نشاهد هذا المد من قبل.

دخل معي بيتي وساعدني على على رفع الفرش، والتلفزيون، تحسبا لغمر مياه البحر، وكذلك فعلت معه. دخلنا داره وقمنا برفع الفرش. هتفت دون أن أشعر:

ـ أمي الزاهية!

قال لي مراد:

ـ تعال.

طرقنا باب بيتها ونحن نقف فوق الماء.لم ترد. دفع مراد الباب فدخلنا. وجدناها مستلقية على الأرض، وقد ابتلت ثيابها. رفعت رأسها نحونا وقالت:

ـ خشيت أن أموت غرقا.

انحنيت عليها وحملتها بين يدي فقالت لي:

ـ إلى أين سوف تأخذني يا ولدي عبد الرحمن؟

قلت لها:

ـ إلى بيتي يا أمي الزاهية.

قالت:

ـ بيتي وبيتك واطئان، وإن استمر مَدُّ البحر فسيغرقهما معاً.

قلت لها:

ـ لن تبقي وحيدة في بيتك يا أمي الزاهية. سوف يتراجع البحر وتعود الأمور كما كانت.

وضعتها على الفراش. رفعنا أنا ومراد الفرش، ثم قلت لها:

ـ أنا سوف آخذك إلى بيتي لتعيشي معي هناك، إلى أن يتراجع البحر وتسترجعي صحتك.

ساعدناها أنا ومراد على النهوض. أخذت بعض ملابسها. أغلقت باب بيتها وأدخلتها إلى بيتي. رأت الفرش المرفوعة، فقلت لها:

ـ سوف أضع فراش أمي الله يرحمها على الأرض، وعليه سوف تنامين.

قالت:

ـ الله يرحمها.

غادر مراد. تركتها تغير ملابسها المبتلة بأخرى ووقفت عند باب الدار أرقب الماء الذي ارتفع ببعض السنتيمترات عما كان. عدت إلى الدار فهيأت حساء الخضر، وقدمته لها ساخنا. أشربتها إياه بيدي كما كنت أفعل مع الوالدة. قالت لي:

ـ أدوية القلب.

سألتها:

ـ أين هي في بيتك حتى آتي بها؟

قدمت لي المفتاح وقالت:

ـ في المطبخ.

طرت إلى بيتها فأحضرت الأدوية وقدمتها لها. غطيتها بغطاء صوفي هو الذي كانت تتدثر به الوالدة، ومنذ موتها لم يستعمله أحد. أحسست أنها أم أخرى لي، لم تلدني ولكنها تعوضني ما افتقدته بعد موت أمي. قبلت يدها. سحبتها مني واستقامت قليلاً في رقدتها على الفراش وقبلت جبيني. أحسست بحب غامر يغمر قلبي كالذي كنت أكنه لأمي. طلبت منها أن تبقى هادئة، وخرجت حافي القدمين وقد أصعدت سروالي إلى ما فوق الركبتين لأتسقط الأخبار. خرجت من (حي أحريق) وسرت في اتجاه (حي الشبار). الطرقات خالية والماء يغمرها ولا أحد. مشيت في اتجاه (شارع ميرامار) وأنا أَخُبُّ وسط الماء. عندما بلغت (ساحة البحر) كان الماء قد تجاوز ما فوق ركبتي. أخذت أسير بحركات ثقيلة، إلى أن رأيت شاحنات وسيارات الدفع الرباعي تُجلي الأطفال وكبار السن، ورجال الوقاية المدنية يحملون بعض العجائز فوق أكتافهم. رأيت بعض الشبان يحملون آباءهم العجائز ويركبون معهم الشاحنات التي تأخذهم إلى ملعب كرة القدم في (سانية الرمل). التقيت مع مراد وهو يقوم بالإنقاذ. كدت أتدخل مع الجميع، لكني تذكرت أن أمي الزاهية في حاجة إلي.

عدت إلى البيت فوجدتها مسترخية، تسبل جفونها. غيرت ملابسي المبللة بملابس أخرى. أخرجت من الثلاثة سمكة متوسطة الحجم. وضعتها في إناء الطين

ثم وضعت عليها فصوص الثوم والقزبر وورق موسى والملح والتوابل وقليلا من الزيت ثم وضعت الإناء على النار. قلت هذا هو عشاؤنا أنا وأمي الزاهية. تفقدتها فوجدتها نائمة. تركتها تنام، لكن نومها طال. ناديتها فلم ترد. اقتربت منها. رفعت يدها وتركتها فسقطت. يا ويلي! هل ماتت؟ حركتها فلم تتحرك. أجهشت بالبكاء. خرجت أبحث عن مراد في بيته فلم أجده. قصدت بيت عبد الرحمن، صاحب محل البقالة، وهو من بين أصدقائي. في الطريق أخبرني بأن مد البحر قد دخل الدكان وأفسد بعض البضائع التي كانت في مستوى الأرض، وأنه بصعوبة تمكن من فتح الباب، كما أخبرني بأن (مقهى الياسمين) قد غمره الماء من الداخل. لم أبال بكل ذلك، فقد كنت مشغول البال بأمي الزاهية، التي ماتت فوق فراش أمي. اقترب منها عبد الرحمن ثم تراجع. اتجه نحو غرفة أخرى وجلس على كرسي، ثم قال لي:

ـ لا تستطيع في هذا الليل المتأخر أن ندعو الطلبة ليقرأوا عليها القرآن. نترك الأمر إلى صباح غد.

بتنا ليلتنا نسهر على روح أمي الزاهية ونحن نشعر برهبة الموت. لم يغمض لنا جفن. عرضت عليه طاجين السمك فرفض أن يتناول منه. في الصباح خرجت إلى باب الدار فوجدت الماء قد أخذ ينحسر. رأيت عدداً لا يُحْصى من الضفادع الصغيرة التي تخلقت من ذلك الماء وهي تنط وتتقافز. طرقت باب بيت مراد ففتحه وهو يفرك عينيه. أخبرته بموت أمي الزاهية. طفرت الدموع من عينيه. أخبرته بأنها ماتت ليلا وأن عبد الرحمن البقال قد قضى الليلة معي. قال لي:

ـ نستعد للجنازة.

دخل معي الدار. سألته عن هاتف احميدو ولد أمي الزاهية ففتح هاتفه وقدمه لي. اتصلت باحميدو. أخبرته بموت أمه. سألني:

ـ متى ماتت؟

قلت له:

ـ البارحة ليلا.

قال:

ـ سنحضر أنا وأختي.

خرج مراد وأتى بفقيه المسجد، فوضعت له كرسيا بالقرب من المرحومة، وأخذ يقرأ آيات بينات من القرآن الكريم. قال لي عبد الرحمن:

ـ عندما يأتي ولدها وبناتها هم من سيتدبرون أمر جنازتها.

لكن الفقيه قام من مكانه وذهب إلى المسجد فأتى بكفن قال إن أحد المسلمين قد تصدق به. واستعمل هاتفه فاتصل بامرأة وأعطاها نعت الدار، وعندما حضرت قامت بتغسيل المرحومة وتكيفنها بذلك الكفن.

خرج مراد إلى المستشفى وأتى بممرض عاينها ثم كتب ورقة الدفن. قال لي مراد:

ـ بهذه الورقة سوف أذهب إلى المقبرة ليحفروا قبرها.

أتى من وضع كراس مستطيلة عند باب دارنا، جلس عليها كل من جاؤوا للعزاء ويرغبون في تشييع المرحومة إلى قبرها. قال لنا الفقيه:

ـ كل شيء جاهز. إكرام الميت دفنه.

قلت له:

ـ ننتظر أن يحضر أولادها.

قال:

ـ ندفنها وعندما يحضرون يترحمون عليها.

في ذلك الحين أقبل أولادها. بدا احميدو غاضبا وقال لي:

ـ نحن أتينا إلى بيت أمي ثم فوجئنا بأن الجنازة في بيتك. ما الذي وقع حتى ماتت أمي في بيتك؟

أخبرته بمد البحر، وبأننا أنا وجارنا مراد أخرجناها من بيتها حتى لا تموت غرقا، ثم أتايت بها إلى بيتي. قال لي:

ـ لا أصدق. متى مد البحر؟ هل أنت تسخر مني؟

قلت له:

ـ اهدأ، وكل الجيران سوف يشرحون لك ما حدث.

زاد غضبه وسألني:

ـ أين هو مفتاح بيت أمي؟

قدمته له. قدمه لأخته زليجة، وطلب منها أن تدخل دار أمهم، ثم قال لها:

ـ عبد المجيد سيصل بعد قليل.

ناحت، ولطمت خديها. حضر الفقهاء واجتمعوا حول الفقيدة، وأخذوا يقرأون سورا من القرآن الكريم. جاء من حملوا النعش وخرجوا به. سرنا في الطريق إلى المقبرة. قال لي احميدو:

ـ كل ما أعرفه عنك هو أنك سمسار.

قلت له:

ـ ما في ذلك من عيب.

تم الدفن، وتبادل الحاضرون العزاء، وانفض الجمع، فعدنا أنا ومراد نشعر بالمذلة والخسران. كان يعلم بأن احميدوا اتهمني باقتحام أمه العجوز قصد سرقة ما عندها من حلي وجواهر. سرنا نحو البحر. بكى أمه وبكيت أمي. رأينا ألا نحضر ليلة الطلبة. عندما وصا عبد المجيد جاء يطرق باب بيني بعنف، وعندما فتحته قال لي:

. ما الذي دفعك لأن تأخذ أمنا إلى بيتك حتى تموت فيه؟ وما الذي سطوت عليه مما كان عندها من حلي وجواهر؟

خفضت نظري وقلت له:

. دع المرحومة ترتاح في قبرها.

قال:

. سوف أفتش بيتك.

قلت له:

. ادخل وفتشه.

في تلك اللحظة أقبلت أخته زليخة، وقالت له:

. لقد وجدت الحلي في مكانها.

قلت لها:

. لكنك لم تجدي أدوية القلب التي كنت أشتريها بأمك.

قالت لي:

. بارك الله فيك.

لكن أخاها عبد المجيد بقي متوترا، ينظر إليَّ وكأنه يهددني بالضرب. تركتهما

ودخلت بيتي ثم أغلقت الباب. بكيت بكاء حارقا، ولم أندم على فعل الخير في أمي الزاهية، رغم أن أولادها قد أهانوني.

في تلك الليلة، أتوا بالطلبة فقرأوا القرآن، وشممنا رائحة الكسكس ينضج. لم يدعنا أحد لحضور الليلة، فلم نحضرها أنا ومراد. في الصباح أخبرني بأن لا أحد من حينا حضروا، وأن أبناء أمي الزاهية غادروا الحي دون أن يبقوا لإقامة أيام الترحم الثلاثة على أمهم.

لم أنس أمي الزاهية، ونسيت أبناءها وما وقع لي معهم.

الفصل الثاني

الشاعر

حسن الديباجي

تمتنت صداقتي مع الشاعر حسن الديباجي فأصبح يجالسني في المقهى. أحيانا كان الدكتور عرفة الورزازي يأتي هو الآخر ليجالسنا، فتتشعب الأحاديث بينهما، لأبقى أنا في الاستماع. أحاديث حول الثقافة والأدب، والشعر ودور المثقفين في التغيير، ودار لقمان التي تبقى على حالها. بقدر ما يظهر الدكتور عرفة رصينا متين الأفكار، يقنع بأسلوبه وطريقته في الحديث، فقد كان حسن يطرح أفكاره وهو متوتر، كأنه يتخاصم، وحتى ابتسامة الدكتور عرفة، وهدوءه، لم يُهدئا من روعه ومزاجه الحاد. جرى ذكر السي التايمي مدير الأمن، فقال عنه:

. هو كغيره من مسؤولي الأمن، عندما وصل إلى المدينة أحاط به تجار المخدرات فاكتروا له شقة فاخرة فرشوها بأحسن المفروشات، وقدموا له مفاتيح سيارة جديدة، فقبل ذلك منهم.

سألته:

. ولماذا لا يقبل؟ هو لم يطلب منهم شيئا.

قال:

. ما قدموه له هو طعم ابتلعه، ليصبح بين أيديهم.

سألته:

. وهل تظن أنه سوف يتستر عليهم؟

قال:

. من يكون العجين في بطنه لا يستطيع أن يحرك ساكنا. أنا لا أحكم على

النوايا، ولا يهمني هذا الأمر. ما يهمني هو الفساد السياسي الذي تعرفه البلاد.

قلت:

. الفساد في كل مكان.

قال:

. في الانتخابات يتدخل العمال والولاة لهندسة الخريطة الانتخابية، والمال العام يُسرق بالملايير ولصوصه يحاكمون بالسجن ولا تطلب منهم المحكمة استردادها، لأنهم تقاسموها مع أناس آخرين ضالعين في السلطة.

. يلقون جزاءهم.

. ما الفائدة من سجنهم، إذا كانوا لن يردوا أموال الشعب التي سرقوها؟

سألته:

. السي حسن، هل أنت مع حزب سياسي معين؟

قال:

. أنا معارض، أقف ضد فساد السلطة وفساد الأحزاب.

عدت أسأله:

. والشعر؟

قال:

. الشعر هو الشعر.

أشعل سيجارة، ورشف من فنجان قهوته التي يشربها بدون سكر، ثم قال لي.

. أنا جارح، وهذا هو شأن الشعراء. أنا أجد في الشعر الخلاص.

سكت لحظة. تطلع إليه الدكتور عرفة، وقال له:

. الشعر هو الخلاص.

وعندما رآه غائبا عنا سأله:

. ما بك يا حسن؟

قال له:

. أنا جارك في العمارة آ السي عرفة. وتعرف أن زوجتي صباح معلمة في مدرسة الفقيه الرهوني بمرتيل.

قال له:

. أعرف ذلك.

قال حسن:

. وأنا أعرف أن صراخنا أنا وصباح يُسمع عند الجيران.

قال له الدكتور عرفة:

. لا بأس. كل الأزواج يتخاصمون.

قال:

. أنا تعبت من المشاجرة كل يوم. في يوم ما سوف تقتلني أو أقتلها.

ابتسم الدكتور عرفة وقال له:

. لا حاجة للقتل. لو كان القتل يريح الإنسان لكنت أنا قد قتلت أنيط.

قال حسن:

. القتل الرمزي هو ما يحقق الراحة. أنت عندما تقتل أحدا، بصورة رمزية، فأنت تتخلص من شره، بل تنسى صورة وجهه.

قلت لهما:

. دعانا من حديث القتل.

قال لي حسن:

. يا أخي عبد الرحمن، أنت غير متزوج، وقد أراحك الله من شر الزوجات الفاسدات.

قلت:

. لكني لن أبقى العازب الأبدي. أنا أصلي الفجر ولا أقرب النساء، وصبري طال.

تمنيا لي أن أجد الزوجة الصالحة، لكن حسن ضحك بمرارة وقال:

. إنها ثامن عجائب الدنيا، وهي لا توجد إلا في إرم ذات العماد.

***

حكى لنا الشاعر حسن الديباجي عن الحياة الصعبة التي يعيشها مع زوجته صباح. قال إنه لا يقصر في مسؤولياته كزوج، بينما هي تنكد عليه يومه، وتمانع في الفراش، ثم ترغب في أن تقيم الحجة على علاقته بامرأة. قال لنا:

. ألقاه في اليم مكتوفا وقال له إياك أن تبتل.

ضحك الدكتور عرفة وقال له:

. يا أخي لا تسمح لها بأن تلقيك في اليم. ألقها فيه لترى هل ستبتل.

فهمت من كلام الدكتور عرفة، أنه يوجه حسن نحو نفس ما تفعله زوجته،

فبطرح الشك في تصرفاتها كما هي تشك في علاقته مع النساء. لكن حسن، زفر زفرة عميقة وقال:

. أنا لست محاربا، ولا أتقن فنون الحرب، خاصة مع النساء.

سألته:

. والمرأة في قصائدك؟

قال:

. المرأة في قصائدي خيط من شعاع رقيق، رمز من رموز الحياة، هي الأم والأخت والحبيبة المفتقدة، وهي نصف الرجل الضائع، الذي يقضي عمره وهو يبحث عنه.

قال الدكتور عرفة:

. صورة مثالية عن المرأة تتعالى عن الواقع، لكنها أنسب لأن تحضر في الشعر أكثر من حضورها في الواقع.

قال له حسن:

. من شأن الشعر أن يتعالى عن الواقع، وأن يرفعه إلى مستوى المجرد والمحسوس.

أرسل حسن نظراته نحو البعيد وصمت لبعض الوقت حتى حسباه يعيش في عالم قصيدة هي في طور التَّكَوُّن.

***

في يوم آخر، التقينا في (مقهى الياسمين)، أنا وحسن الديباجي والأستاذ عرفة الورزازي والدكتور سعيد الرفاعي، ومعنا ثلة من طلبة عرفة، في جلسة موسعة،

شغلت العديد من الموائد والكراسي. تحدث الدكتور عرفة عن تأسيسه لخلية ثقافية في دار الثقافة، تشمل أساتذة جامعيين، وطلبة باحثين، وكل المهتمين بشؤون الفكر والثقافة والأدب. وهي منبر حر يتقاسم فيه المثقفون الأفكار والتوجهات. قال لنا:

ـ الجامعات تستوعب مثل هذه الخلايا، لكن جدرانها مغلقة، والهدف من اللجوء إلى دار الثقافة هو الانفتاح على كل من يرغبون في التثقيف الذاتي، أو لهم رأي، أو يحبون أن يستأنسوا بأفكار الآخرين.

ذكرنا بأن الجلسة الأولى قد أقيمت مع مؤرخ يمتلك ذاكرة تطوان في العهد الاستعماري من خلال آلاف الوثائق التي يتوفر عليها، فقد كان في أول شبابه كاتبا خاصا للمقيم العام الأسباني، اطلع على كل الوثائق التي تتعلق بالوجود الأسباني في شمال المغرب. هذا الرجل الكبير السن، الذي تجاوز التسعين عام، لن تستمع إليه الأجيال القادمة، لذلك استضفناه في أول حلقة، فقدم محاضرة أفادت الجمهور. لكي ننوع من اللقاءات، فكرنا في أن نستضيف الشاعر حسن الديباجي في مسامرة شعرية يأخذنا فيها إلى عالمه الشعري. قاطعه حسن وقال باستنكار:

ـ أنا؟

قال له الدكتور عرفة:

ـ نحن نعرفك شاعرا، وأنت تنكر ذاتك. كل ما في الأمر هو أننا نرغب في أن نقرب تجربتك الشعرية من الطلبة ومن الجمهور.

قال حسن:

ـ الأشعار التي أكتبها لم أنشرها في الجرائد والمجلات، ولم أنشرها في ديوان أو

دواوين. ثم إنني لا أحب أقرأ أشعاري على جمهور واسع. إنها قصائد مهربة، مسكونة بالدهشة، من خلال كتابتها أكتشف العالم.

قال له الدكتور سعيد الرفاعي:

ـ لا بأس. كل هذه الأمور التي ذكرتها تشجع على أن ننظم لك قراءة شعرية يتعرف خلالها الحاضرون على طريقتك في كتابة الشعر.

تدخل أحد الطلبة الحاضرين، وقال لحسن:

ـ أيها الشاعر، رغم أنني لست ابن مدينتك مرتيل، وقد جئت للدراسة في جامعتها من بلد آخر، فإنني أصبو إلى أن أعرف كيف تمثلت صورها في أشعارك.

وقال طالب آخر:

ـ الشعر، منذ امريء القيس وإلى محمود دريش، ظل مساحة حرة للأحاسيس والأفكار والمواقف، والرهان على حياة أخرى في القصيدة تضاهي الحياة التي يعيشها الشاعر أو لا تضاهيها. أنا أرغب في سماع قصائدك، لأجد هذا التصادي بين تجربة الحياة وبين تجربة الكتابة الشعرية.

ظل حسن يتابع ما يقال وهو يطرق برأسه، ثم قال:

ـ الكتابة الشعرية لا تحتاج إلى تنظير، إنها نابعة من جماع رؤي وأحاسيس، وما يكتنفها من غموض إنما هو راجع إلى أن العالم يحضر دفعة واحدة، بزخمه، في القصيدة.

قال له الدكتور عرفة:

ـ قل هذا الكلام لجمهورك.

قال:

ـ أنا لم أوافق بعد على أن أقرأ أشعاري على الجمهور.

قال له الدكتور سعيد:

ـ يا أخي لا تتعبنا. كل ما نرغب فيه أنا والدكتور عرفة، هو نشر الثقافة والفكر والأدب في مدينة أغلب سكانها من الصيادين، ومهربي السلع من سبتة، أما الطلبة فهم ضيوف يأتون للدراسة في الجامعة ثم يذهبون ليأتي آخرون. إنهم ليسوا سكانا لمدينة مرتيل بالمعنى الدقيق.

قال له حسن:

ـ يا دكتور، نشر الثقافة من واجب وزارة الثقافة، وليس من واجب حفنة من المثقفين.

قال له الدكتور عرفة:

ـ المبادرات الفردية لها أهميتها يا أخي حسن، وأنا أطلب منك أن تقبل المشاركة معنا بقراءة شعرية.

احمر خدا حسن خجلا، وأطرق برأسه، ثم قال للدكتور عرفة:

ـ الرأي ما تراه.

ابتهج الطلبة، وصفقوا. لكن حسن بدا شديد السهوم.

في دار الثقافة حضرنا قراءة شعرية لصديقنا الشاعر حسن الديباجي. حضر جمهور أغلبه من الطلبة. وقف الدكتور عرفة أمام الحاضرين وقال:

ـ أيتها السيدات، أيها السادة، في حلقة ثانية من برنامجنا الثقافي الشعري نستضيف اليوم الشاعر حسن الديباجي، وهو ابن هذه المدينة مرتيل، تمثلها في أشعاره التي يعتبرها مهربة، تبحث عمن يلتقي معها. أنتم معشر الحاضرين من

تتلقون قصائد شاعر لا يحب النشر والشهرة، ويعتبر كتابته للشعر نابعة من الرؤى والأحاسيس. إليكم الشاعر حسن الديباجي.

صفق الجمهور. وقف حسن على المنصة وقال:

ـ أشكر لكم حضوركم. أعرف أن من يتذوقون الشعر والأدب والموسيقى والسينما هم أصحاب الأحاسيس، وأنا لا أسعى إلى أن أكون شاعرا جماهيرا، بل إن هاجسي هو أن أعبر من خلال القصيدة عن الوجود.

صفق الجمهور. أخرج ورقة من جيب سترته وتأملها. في تلك اللحظة دخل القاعة مدير الأمن السي التايمي بزي مدني، فارتبك حسن. بدا على حركاته أنه سوف يغادر المنصة. التحق به الدكتور عرفة وقد أدرك ما به. توقف أمامه طويلا وهو يتحدث معه، إلى أن غادر الدكتور عرفة المنصة، ووقف حسن أمام الجمهور وهو ينظر إلى الأرض، ثم أخرج من جيب سترته عدة أوراق تفحصها بنظره، وقال:

ـ سوف أبدأ بقراءة قصيدة بعنوان: "شيء ما".

صفق الحاضرون. أنشد حسن:

شيء ما

كالألم يغور في الأحشاء.

شيء ما

كدمعة عصية لا تتهاوى على الخد.

شيء ما

كالتوابع والزوابع.

شيء ما

يشبه الربيع في ذهابه

والخريف في مجيئه.

شيء ما

كأنه الفوران.

شيء ما

يختبئ في صدري

كأنه مدينتي مرتيل.

شيء ما

يحدث أولا يحدث

اليوم أو غدا

في الربيع

أو في الخريف.

شيء ما

مسروق من هذه المنارة

التي هي مدينتي.

شيء ما

موجعٌ دائم الحمى.

شيء ما

يُدهش الناظرين.

شيء ما

عجب أو عجاب.

شيء ما

يَخْلِطُ الضوء بالظلام.

شيء ما

مُشْتَهًى ومفقود.

شيء ما

مُعَافٌ

وموجود

ومفقود.

شيء ما

يبعث الروح.

شيء ما

يشبه الوداع.

شيء ما

يمتد من البحر إلى البر.

شيء ما

كالمسافات

التي

تفصل

بين القادم

والآتي.

شيء ما

يَرْعَشُ في العروق.

شيء ما

يذهب نحو البعيد

ويترك

القريب.

شيء ما

يشبهني أو لا يشبهك.

شيء ما

ينذر بالرحيل.

شيء ما

يولد

من رحم الأشياء الأخرى.

شيء ما

يُسهر

في وهج الليل

على

ما ينطفي

في النفس.

شيء ما

ينظر نحو السماء

ثم حينما ينحني

نحو الأرض

لا يجدها

في المكان.

شيء ما

يشبه كل هذه الأشياء.

صفق الجمهور. نظر حسن إلى أوراق أخرى وقال:

ـ قصيدة ثانية، عنوانها: "مرتيل". مدينتي التي لم أمدحها ولم أهجها، لم أتغزل فيها ولم أرثها، إنما جعلتها في موطن من مواطن الأحاسيس.

ثم أنشد:

لعلها مرتيل

أغنية لم يسمعها أحد

كتابة أولى

لتاريخ لم يوجد

أو هي

تربيع وتدوير

توابع وزوابع

زينة للناظرين

لكنها في منعطف آخر

تبدو امرأة ملتبسة

لا يعرف أحد.

عاهرة

أم قديسة

أم فراغ

يسكنه الفراغ

ولا أحد يعرف ما

يملأ ذلك الفراغ

مرتيل مدينة

خانها الزمن

وأوحشتها الأيام

حتى أنكرها سكانها

فرموها البحر

حتى صعدت من القيعان

أغنية

سرابا

أو خرابا

شهقة

أو مناورة للوقت

أو حدا لسيف مصلت

على رقاب من يسكنونها

ثم

هاهي تزهو في الأعين

تأتي

بأنسام البحر

والنعيم

والبهجة

والحبور

ثم تغدو

دمعة على الخد

محفورة بإزميل

أو جرحا على صدر

أو تباريح

أو هي الشيء والنقيض

سراب السراب

أو يباب اليباب.

صفق الجمهور. رأيت أصابع حسن وهي ترتعش، ووجهه يصفر، وهو يداري توتره. أمسك بورقة لم أشك في أن الحاضرين قد رأوها ترتعش في يده، وبصوت متهدج قال:

ـ القصيدة الثالثة بعنوان: "أيها النهار".

ثم أنشد:

أيها النهار

لا تمر هكذا

سريعا

كظل للنهارِ

أيها الريح

لا تعصفي

بكل شيء

فثمة ما ينبغي أن يبقى.

أيها الرحيل

لا تكن

إلا نحو الأبدية.

أيتها المرأة

التي حلمت بها

لا تكوني مستحيلة

بل تعالي

لنبدأ

لحظة البدء الأولى.

أيها الموت

أَجِّلْ موعدك

إلى حين

أن يدخل الأبيض في الأسودِ

أيتها المواعيد

التي لا مواعيد لها

اعذريني

فثمة أكثر من مفاجأة

تجعلني

لا أتي في المواعيد.

أيها السقام

حُلَّ عني

كي

أمارس شهوة الحياةِ

أيها القتلة

لا تقتلوا جسدا بريئا

اقتلوا أنفسكم

وأريحوا هذا العالم

من بشاعة القتلِ

أيها الشرفاء

لا تترددوا في

معرفة أن المصير

هو الشهادة

والاستشهاد

وأن دم الشهيد

تضحيةٌ

وأن كل شيء

سوف يتغير.

أيتها المسافات

لا تبتعدي كثيرا

بل اقتربي

في الزمان والمكان

حتى

تبدأ الأعراس

في ربوعِ هذه الأوطانِ

أيها النهار

لا تمر هكذا

سريعا

كظل للنهار.

صفق الجمهور. مسح الشاعر العرق عن جبينه بورق أخرجه من جيبه ثم أعاده إليه. زاغت نظراته واصفر وجهه. نظر إلى أوراقه الراعشة بين يديه، ثم قال:

ـ القصيدة الرابعة عنوانها: "ذلك اليوم".

ثم أنشد:

ذلك اليوم

تُراه تأتي

مثقلا بالغيم

أو لا يأتي

إن أتى

هل تراه يأتي

وهو لا يحب المجيء.

ذلك اليوم

مشرئب الخطى

خافض النظرات

هائم

على وجه هذه الأرض

يأتي

كي

ينفض الغبار

عن وجوه

إن تجولت في الشوارع

تفزع المدينة.

ذلك اليوم

قد يراوغ

في المجيء

وقد يظهر

في آخر الحلم

ثم لا يأتي.

ذلك اليوم

يأخذ الأشجار

إلى منتهى الريح

يأخذ الأشياء والكائنات

إلى حافة الموت

يأخذ الطريقَ

والصديقَ

إلى حيث المرايا

إن أتي

فهو من يعيد إلى

أول الحلم

نهايته.

ذلك اليوم

عَصِيٌّ

إن أتى فهو يأتي

متكئا على عكاز من الريح

أو إن أتي

فهو يأتي

في الصحوة الأولى.

ذلك اليوم

من حرير

مخملي

إن أتى

فهو لن

يبرح هذا المكان.

صفق الجمهور. بدا الآرهاق على محيا حسن، فقال:

ـ قصيدة أخيرة، عنوانها: "يخضر القلب".

وأنشد:

لا تترْكْنِي وحيداً

اقرأ السلام عليَّ

يا صاحبي

ثم خذني

إلى حيث يخضرُّ القلب

خذني

إلى حيث الغناء

حتى أغني

وأبهج كل الأصدقاء

خذني إلى المقابر

كي أرى

حفرة

بها سيكون قبري

خذني

إلى كل تلك الأشياء

التي تُرى

والتي نراها في الأحلام

خذني

إلى حيث تطوف بي الأخاييل

خذني

إلى بحر يتيه فيه الملاح

خذني

إلى الصحراء

خذني

إلى ربيع العمر

خذني

إلى مدينتي الأولى

كي أرى
وجهها
الذي يتبدل
كل يوم
ثم خذني
إلى المشتهى
والمؤمل
والمرتجى
والمؤجل
خذني
إلى هدأتي الأخيرة
خذني
ولا تأخذني
يا صاحبي
فأنا
من يأخذ نفسه
نحو كل الجهات
التي
يخضر فيها القلب.

صفق الجمهور بحرارة. هتف بعض الطلبة:

ـ قصيدة أخرى. قصيدة أخرى.

انحنى حسن تحية لهم، ونظر إلى أوارقه، ثم قال وهو يبتسم:

ـ قصيدة أخرى. قصيدة أخرى عنوانها: "خراب الخراب".

ثم أنشد:

أيها الخراب
لا تأت
هكذا فجأة
كن
مُتَّئِدَ الخطى
عاقلا
حتى وأنت
خراب الخرابِ
وحتى لا تأتي على المدن
لتجعل منها يبابا
وحتى
أيتها

التوابع والزوابع

لا تأت

هكذا

في نشوة

حتى وأنت

تباغتين

هذا الكون

بأشكال الخرابِ

أيها الأعاصير

إعصري

ما شئت

فثمة

أفق

للرحيل

وموجة

هادئة

تحمل الروح

إلى

أقاصي الرحيلِ.

أيها النعاس الجميل

هل تأتي

بحلم

وردي

يشبه حلم الرحيل.

صفق الحاضرون بحرارة، وهتف بعض الطلبة:

. قصيدة أخرى.

ابتسم حسن وقال:

. قصيدة أخيرة. قصيدة أخيرة عنوانها: "لم يفت الأوان".

ثم أنشد:

لم يفت الأوان

فلا أحد

يعرف ما سوف يأتي

كل شيء متوقع

ولعل المدينة

تنتظر الساعة

لم يفت الأوان

فالربيع

يأتي قبل الخريف

والدهشة تأتي

قبل

الكشف

والحَيْنُ

يأتي

قبل الحِين

لم يفت الأوان

شمس دافئة

تظهر

في الصورة

قبل أن تظهر

في السماء

لم يفت الأوان

مدينة

سقطت أسنانها

مثل

عاهرة

في آخر الليل

عربدت بالسكر

حتى

غابت

الأشياء

والأسماءُ

لم يفت الأوان

فالعنقاء

تُبعث من رماد

والأساطيرُ

إن لم تكن

معاصرة

فليس لها من معنى

والأعاصير

لها أوقاتها

لم يفت الأوان

لكي

تظهر في الصورة

الصور الأخرى

لم يفت الأوان

فما تحبل الأرض به

من تغير

لن يأتي قبل الأوان

لم يفت الأوان

على أن يأتي

ذلك الأوان.

تحت تصفيقات الحاضرين، صعد المنصة الدكتور عرفة، وأخذ منه مكبر الصوت، ثم قال للجمهور:

شاعرنا أبهجنا بقصائده. الشكر له، وأنا بصفتي الشخصية، أطلب منه أن يقرأ علينا قصيدة أخرى. أقبل على حسن، وصافحه. بدا حسن خجولا. نزل الدكتور عرفة عن المنصة. صفق الجمهور. وقف حسن حائرا، أما مكبر الصوت، ثم قال:

ـ تحية للجمهور الحاضر، ولصديقي الدكتور عرفة. أشعاري كلها منذورة لكم، فأنا لم يسبق لي أن نشرت ديوانا شعريا حتى لا أنافس كبار الشعراء في ذلك، كما أنني لم أنشر أشعاري في الجرائد والمجلات، أو في مواقع التواصل الاجتماعي. أنا أكتب الشعر لنفسي، وعندما أراد الدكتور عرفة أن تتقاسموا معي أشعري، فرحت بذلك.

ثم أخذ يفتش بين أوراقه، وقال:

ـ قصيدة مفعمة بالأحاسي، أهديها إلى صديقي الدكتور عرفة الورزازي.

صفق الحاضرون بحرارة. قال حسن:

ـ القصيدة عنوانها: "ها أنت".

ثم أنشد:

ها أنت
في صبابتك الأولى
توقظ الصمت من مضجعه
ثم تعصر الخمر
ناظرا
صوب أعشاش تُعَشِّشُ فيها القصيدة.

وها أنت
في أزمنة المراثي
ترى الموت يختم بالشمع
على أبواب الحدائق

ها أنت
واقف على الباب
مثل غراب إدغار ألان بو
الذي جاء يطرق الباب
وما الباب سوى ثقب في جدار
يبيح الدخول والخروج

من غير أن تراه أعين الشاعر
أو تدخله القصيدة.

ها أنت أيها الرائي
ترى شتائل الورد
والشموع المضيئة
والمودعين ينتظرون
وأنت تمرح في ثوب القصيدة
لا تكتب الصمت المبطن
تسكن
في حلم جميل
ترحل فيه
مع الأغاني والقصيدة.

ها أنت
بوابةٌ مشرعةٌ
على سفر كالرحيل
ومرتعٌ للخيالات
ومَفْرَخٌ للرؤى
وأحراج من الأضواء
منها تولد القصيدة.

ها أنت
تلبس ثوب
أورفيوس
حتى تدخل في دروب
ظلامها كالظلام
وما تسير فيه
هو الظلام
لا تلتفت إلى الوراء
وإن نظرت نحو الأمام
فأنت ترى حتفك
حيث تنعدم الرؤى
والأخاييل
ولا أمام
أو وراء
سوى ما تأتي به القصيدة.

ها أنت
في محفل للرؤى
تنعشها
زرقاء اليمامة
تتبعها العنقاء

واحدة ترى من بعيد
وأخرى تكبر أن تُصاد
هما عمر جميل
وأغنية
تتغنى بها القصيدة.

ها أنت
تذهب نحو الفناء
بعد أن خيم ليل العمر
تسكن في القصيدة.

ها أنت
تحفل بالربيع قبل الخريف
إن حلق الطير
فوق رأسك
وتخلى عنك
الأحبة والأصحاب
تبيت وحيدا
وأنت تستأنس بالقصيدة.

وها أنت
تعصر الماء
تُخْبِر الأشياءَ
تبدأ الأسماءَ
تنظر للعاشق والمعشوق
والشهيد
والقاتل والمقتول
وكل ذلك
يأتي مرا زعافا
أو عسلا
في ثنايا الريح
وفي رؤية من رؤى القصيدة.

وها أنت
تُشبك الأصابع
تنظر للشمس وهي تغيب
تسمع ما تبقى من أغاني الزمن الجميل
تساير الريح
حتى لا تنحني
فأنت كالأشجار
تموت واقفة

غير أنك لا تطاوع الريح كثيرا
وإن هبت رياحك
فهي رياح القصيدة.

وها أنت
واقف
بين باب السماء
وبين باب الرجاء
مفتوح الذراعين
تنعش الروح
بالقصائد
والأغاني
والرؤى العجيبة
تصنع أجنحة
لطائر الرخ
حتى
تمتطيه القصيدة.

وها أنت
تمحو
الكلام المعاد

والخطب الجوفاء
ثم لا يأتيك
النعاس الجميل
ولا تحلم
بالحلم المستحيل
لكنك تشرب
خمرة
من ماء السحاب
بها تسكر القصيدة.

وها أنت
في غفوة
تقبض الفراغ
وتسمع رجع الصدى
ثم يأتيك الحنين
إلى زمن مضى
تذكر الأحباب
تفتح الأبواب
لذاكرة
ترشح بالوجوه
وما تبقى

من مدن للدهشة
ثم صار الزوال
إلى زوال
ولم يبق شيء
سوى
ما تردد في قوافي القصيدة.

وها أنت
تنظر للقصيدة
وهي تورق
أحلاما
ومجازات
نهارك ضوء
وليلك ضوء
تستضيء
من فتيل ذيلت ذؤابته
وإن ضاع منك الضوء
فأنت تستضيء بضوء القصيدة.

وها أنت
ترفل في حلل

الكلمات الجميلة
تسكب الضوء
في أعين الساهرين
وترقب الشمس
في مطلعها ومغربها
واللوز يُزهر
والدنيا على مرح
وأنت تسكن
في جذور الأرض
تزرع الحب بين الناس
إن أزهر
تُزهر معه القصيدة.

صفق الجمهور. نزل حسن عن المنصة. قام مدير الأمن السي التايمي ومد له يده ليصافحه، لكن حسن قال له:

ـ أنا لا أصافح البوليس.

ظهر الغيظ على وجه السي التايمي. قال له الدكتور سعيد الرفاعي:

ـ لا تأخذ عليه، فهو يمازحك بهذه الطريقة.

قال له السي التايمي:

ـ شاعركم أهانني. ألهذا دعوتموني للحضور؟

تدخل الدكتور عرفة، وحاول أن يهديء السي التايمي، إلا أنه انسحب من

القاعة غاضبا. ألقى كل من عرفة وسعيد اللوم على حسن، وقال له عرفة:

. من مد لك يده بالسلام لا تسلم عليه؟

قال له حسن:

. إن كانت يدا قذرة تأخذ المال الحرام فأنا لا أسلم عليها.

اجتمع الطلبة حول حسن، وبدأو يطرحون عليه بعض الأسئلة. بدا متعبا، يكتم ما يشعر به من توتر، فوعدهم بلقاء آخر، واتجه نحو باب دار الثقافة. لحقت به. لم أجد ما أقول له، فقد كان في قمة الغضب. قال لي:

. متى كان البوليس يهتمون بالشعر؟ أنا لا أعرف لماذا دعوه لحضور القراءات. إن كانوا يجالسونه في المقهى فهذا شأنهم، أما أن يقحموه فيما لا شأن له به، فهذا ما أغضبني.

قلت له:

. لا تقلق.

لكنه تركني وذهب في اتجاه حانة الشاطيء.

غاب عنا ليومين. سألت عنه جاره الدكتور عرفة، فأخبرني بأنه لم يره. كلمته بالهاتف، رد عليَّ بصوت متعب:

. أنا مريض.

سألته عن مرضه فأخبرني بأنه يعاني من دمل في المخرج، يؤلمه أشد الألم، حتى إنه لا يستطيع الجلوس. ذهبت لرؤيته، واقترحت عليه أن يزور صديقنا الدكتور سعيد. كان سعيد قد أخذ على حسن تصرفه مع مدير الأمن السي التايمي، واعتبره تصرفا أرعن، يدل على مراهقة فكرية كما قال. لكنه مع ذلك، استقبله

وأخبره بأن لا حل مع ذلك الدمل سوى الاستئصال بعملية جراحية. اتصل بالهاتف ب(مصحة النخيل)، ثم طلب مني أن أرافقه إلى هناك. ظل حسن يتألم طوال الطريق. خلال العملية حضر الدكتور سعيد مع الطبيب الجراح. بعد يومين جاء إلى المصحة بسيارته فأعدناه إلى بيته. عبر لي الدكتور سعيد عن استغرابه لكون زوجة حسن لم ترافقه إلى المصحة، ولم تزره لتطمئن عليه، وحتى عندما أعدناه إلى البيت لم تسأل عن حالته وعن الأدوية والأطعمة التي سوف يتناولها.

سعيد الرفاعي

صديقي الدكتور سعيد الرفاعي قَدَّمَ لإحدى كليات الطب بفرنسا بحثاً ميدانياً عن الأمراض التي تنتشر بين عمال المنطقة الصناعية بمرتيل، نال عليه شهادة تخصص في طب الشغل. أخبرني عن تلك الأمراض التي تنتشر بين العمال، ومن بينها الأمراض الجلدية وأمراض الجهاز التنفسي والحساسية.

هو أول طبيب فتح عيادته بمرتيل، سبق له أن عملاً طبيباً في العديد من مستشفيات الدولة بتاهلة وورزازات وابن سليمان فاكتسب خبرة واسعة بعمله، زيادة على تلطفه مع المرضى واستقباله للفقراء منهم بالمجان، وإن كان لابد من زيارة مريض في بيته فهو لا يتردد في ذلك حتى في آخر الليل، إن كان هناك نزيف عليه أن يوقفه أو حالة مستعجلة تستدعي التدخل الطبي. كثيراً ما جالسته في المقهى بعد أن انعقدت الصحبة بيني وبينه بسبب كثرة تردد الوالدة رحمها الله عليه، وحتى أمي الزاهية أنا من كنت آخذها إليه وهو من أرسلها إلى طبيب متخصص في أمراض القلب والشرايين في تطوان، بعد أن قال لي:

ـ أمراض القلب والشرايين لا أتجرأ على علاجها، وأحيل من يشعرون بها إلى

الأطباء المختصين. عندما يتعلق المرض بالأمراض الباطنية، فأنا خبير، وإن استدعى الأمر جراحة على البواسير أو الخَرَج أو الأمعاء فأنا أحول المريض إلى إحدى مصحات تطوان.

يضحك ويقول:

ـ اليوم جاءتني امرأة تشكو من حرق في عينيها.

ـ في عينيها؟

ـ سألتها هل قطرت فيهما قطرة. قالت غسلت شعرها بالشامبوان فأحست بالحرق في عينيها.

ـ الشامبوان؟

ـ عرفت ما هي المشكلة. غسلت شعرها بذلك الشامبوان الذي يباع على الأرصفة. اللتر بعشرة دراهم، وربما كان فاسدا أو انقضى أجل صلاحيته.

ـ الشامبوان الرخيص السعر الذي تباع منه قارورة لتر بسبعة دراهم؟

ـ أعطيتها قطرات لتنظيف العينين. ثم جاء شاب من بوالدته وهي تشكو من تشنج في أصابع يديها يسبب لها آلاماً حادة. قال لي أمي مسحورة. سحروا لها. أخذناها إلى الفقهاء دون جدوى.

ـ مسحورة وتأتي إلى طبيب؟

ـ أنا أفهم هذه الحالة. الوضع يتعلق بنقص شديد في الأملاح المعدنية والمغنيسيوم والكالسيوم. والناس يفسرون ذلك التشنج في أصابع اليدين والأطراف بسحر من فعل ساحر.

ـ عقولهم ضعيفة.

ـ مَسَّدْتُ يدي المرأة وحقنتها بحقنة تحتوي على تلك المواد، فارتخت، وزال عنها الألم.

ـ زال عنها؟

ـ نظرت إلي ولدها الذي كان يتابع عملي بإعجاب وقال لي هو العلم يا دكتور. لا يفلح الساحر من حيث أتى. لم أجادله في انتصار العلم على الغيبيات. كتبت الوصفة وأنا موقن من أن المريضة ستشفى.

ـ طبعاً.

ـ ثم جاءني صديقنا الشاعر حسن الديباجي يشكو من ألم شديد في المخرج، بسبب دمل. وجدت أنه خَرَج.

ـ خرج؟

ـ قال لي حسن إنه قد قضى عدة أيام وهو ينام فوق عجلة سيارة يضع وسطه في فراغها لكي لا يحتك شيء بذلك المكان الذي يؤلمه.

ـ ينام وهو يضع وسطه على عجلة سيارة؟

ـ قدمت له المساعدة بثقب ذلك الدمل وإخراج ما فيه من صديد، وعقمت المكان.

ـ وهل انتهى الأمر؟

ـ لا لم ينته، فقد كان الرجل يحتاج إلى عملية جراحية لاستئصال الخَرَج، نصحته بإجرائها في أقرب وقت عند طبيب جراح.

ـ عند طبيب جراح؟

ـ ثم جاءتني شابة تقول إنها حامل وترغب في الإجهاض.

. الإجهاض؟

. أنا أحترم قوانين المهنة. أخبرتها بأنني لست متخصصا في الجراحة العامة، صارحتني بأنها حملت من السفاح. نصحتها رغم ذلك بألا تقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بحق.

. إلا بحق!

. طبعاً. القوانين الدولية والشرائع السماوية لا تتعارض في هذا الباب. لكن بعض تجار مهنة الطب لا يحترمون القوانين والشرائع.

. لا يحترمونها!

. طبعا، فالإجهاض لا يمكن أن يجريه طبيب جراح إلا إذا كانت حياة المرأة الحامل في خطر.

. في خطر!

. ساعتها يكون التدخل الطبي من أجل إنقاذ حياة المرأة الحامل.

. التدخل الطبي!

. أما الحمل من السفاح فيجب الاحتفاظ به إلأى حين الولادة، وساعتها يجد الوليد من يتكفل به من المحسنين.

. يتكفل به!

. إن كان المحسن في حاجة إلى الإحسان بولد أو بنت وله من القدرات ما يؤهله للكفالة، وله من الحنان والعاطفة ما يشعر به الوليد بالحنان والعاطفة.

. الحنان والعاطفة!

.كم من الناس يَقْسُونَ على أبنائهم، وكم من الناس يعطفون على أبناء ليسوا

من صلبهم.

أخبرني أنه عندما جاء إلى مرتيل في بداية الثمانينات، وبعد أن استقال من العمل مع وزارة الصحة، اكترى الشقة التي توجد بها عيادته إلى اليوم، وكان متزوجاً، فأقام مع زوجته في نفس الشقة التي هي عيادته. بدأ من لا شيء. كانت زوجته تساعده في استقبال المرضى وعندما تجد الوقت مناسباً تعد الطعام ورائحة الطبخ أو قلي السمك تفوح في العيادة. ينامان على فراش صغير يتم طيه بالنهار وإخفاؤه في المرحاض ثم يتم فرشه بالليلليناما عليه. استدان من البنوك لشراء آلات الفحص.

عندما فتح الله عليه اكترى شقة أخرى للسكن، وبقي يجالسني في المقهى كما يجالس عمالاً في البناء ومعلمين في المدرسة الابتدائية وبعض المثقفين، من بينهم الشاعر حسن الديباجي، وأحياناً يجالس مدير الأمن السي التايمي. مرة رأيته يجلس على المنصة الشرفية مع عامل تطوان وباشا المدينة بمناسبة عيد العرش، وما مرت تلك المناسبة حتى التقيت به فأخبرني بأنه كان قد ذهب إلى الرباط لتقديم الولاء للملك الراحل الحسن الثاني، وأن ضغوطاً وقعت عليه من قبل عامل تطوان ليذهب إلى حفل تقديم الولاء. ضحك وقال لي:

ـ يا عبد الرحمن أنا لم يسبق لي أن لبست جلباباً في حياتي. مع ذلك فقد اشتريت على عجل جلباباً أبيض وطربوشاً أحمر وبلغة زيوانية.

ـ لتحضر باللباس التقليدي حفل تقديم الولاء؟

ـ لكي أحضر. وما كنت أحب أن أحضر وأترك العيادة للدكتور الغزواني، الذي يعمل بمصحة الإنارة، ليفسد العلاقة بيني وبين زبنائي من المرضى.

ـ يفسد العلاقة؟

. الدكتور الغزواني شاب مثقف، يعمل في مصحة مجهزة، وهو يسمح لي أحياناً باستعمال آلات الكشف التي توجد بها لصالح بعض زبنائي من المرضى بالمجان، آخذهم بسيارتي إلى مصحة الإنارة فأجري عليهم بعض الفحوص دون أتعاب أو مقابل.

. دون مقابل!

. لذلك تركت له العيادة، ولم أحسب لأنه سوف يفسد العلاقة بيني وبين بعض زبنائي من المرضى.

. أفسدها!

. عندما عدت إلى العيادة من حفل الولاء وعاد إلي أولائك المرضى وجدتهم يقولون إن ذلك الدواء الذي أعطيتهم غير مناسب، كما قال لهم الدكتور الغزواني، ولقد غيره بدواء آخر.

. تخاصمت معه؟

. لا أبداً. استعدت ثقتي بزبنائي من المرضى.

***

ما وقع للدكتور سعيد الرفاعي مع صديقه الدكتور الغزواني حكاه لي هو متوتر الأعصاب، كما ظل لأيام يحكيه لي ولغيري ممن يلتقي بهم، بألم شديد، في المقهى حتى يبرر ذمته مما كان قد تورط فيه.

بدأت الواقعة هكذا:

ذات يوم جاء إليه صديقه الدكتور الغزواني مستبشراً يخبره بأن أناساً مهمين بالرباط يدعونه شخصيا لحضور حفل ثقافي. سأله الدكتور الرفاعي:

. ومن هم هؤلاء الأناس المهمون؟

رد عليه:

. هم يطلبون مقابلك في يوم الأحد المقبل، ويدعونك إلى حفل غذاء وعمل.

. لكنك لم تقل لي من هم.

. سنذهب أنا وأنت يوم الأحد المقبل إلى الرباط وأعرفك عليهم.

. ألا تقول لي من هم؟

. ستجدهم يفرحون بك، ويقدمون لأي مشروع طبي تقترحه كل ما يحتاج إليه من دعم. سنذهب إلى الضيافة، وبعد أن تتعرف على الأناس المهمين يمكن أن نعد أنا وأنت مشروعا لمشفى داخل المنطقة الصناعية، يشترون له الأرض ويعدونه باالبناء والأجهزة الضرورية.

قلت له:

. يا دكتور الغزواني ألا تراني قانعا بعيادتي؟

قال:

. يا دكتور سعيد أعرفك طموحا، بدأت من الصفر وها أنت صاحب عيادة، والأشياء الأخرى سوف تأتي.

قال لي الدكتور سعيد الرفاعي:

"يا عبد الرحمن! شغلني أمر الناس المهمين، من هم، وهل سوف يغدقون الأموال لوجه الله؟ بقي الدكتور الغزواني يلح على ألا يخبرني بمن هم، فحسبت الأمر يتعلق بأميرة من الأميرات، تستقبل في إذا عمل الناشطين وتحفزهم على القيام بمشاريع تنموية تقوم بدعمها، وحسبت أن الناس المهمين هم أباطرة

مخدرات تعودوا على أن يهدوا كباش عيد الأضحى للمعوزين ولغير المعوزين، ثم حسبتهم، وهذا ما خطر على بالي، منظمة سرية هدفها هو قلب نظام الحكم. مع كل هذه التوقعات لم أتحمس لدعوة جاءتني عبر الدكتور الغزواني، ولم توجهها إلي الجهة الداعية مباشرة، حتى أعرف من هي. ظل الدكتور الغزواني يلح عليَّ في الذهاب إلى الرباط حتى لا أضيع فرصة ثمينة من فرص العمر. قررت أن أعرف ما في الأمر. في صباح يوم ألأحد سافرنا بسيارتي من مرتيل إلى الرباط. طوال الطريق وأنا أسأل عمن هم هؤلاء الكرام الذين دعونا فكان يخبرني بأن المفاجأة سيكون لها وقعها الحسن. وصلنا إلى الرباط، وأخذت السيارة (طريق زعير) بتوجيه منه، وأنا أسوقها إلى حيث توجد فيلات الوزراء والجنرالات وعلية القوم. وصلت السيارة إلى فيلا كانت بعض السيارات تقف عند مدخلها. دخلنا بلباسنا الأنيق وحذاءينا اللامعين وقد انتصبت قامتانا والابتسامة تعلو وجه الدكتور الغزواني والدهشة ترتسم معالمها على وجهي. استقبلنا رجل يرتدي بذلة كحلية أنيقة فأخذنا إلى كشف التقطت لنا داخله صورة ثم صنع لنا أحدهم بطاقة مغناطيسية عليها صورتنا ثم سلمها لنا، وبها دخلنا الباب الكبير. وجدنا أننا في قاعة فسيحة، يقف فيها العديد من المدعوين وهم يشربون من الكؤوس ويتناولون من المملحات والأجبان. تعرفت على وجوه سبق أن رأيتها على شاشة التلفزيون، دون أن أعرف أهم وزراء أم نواب في البرلمان. أخذنا كأسين أنا والدكتور الغزواني. رشف من كأسه وقال لي:

ـ هل أعجبك الجو؟

قلت له:

ـ أنا لا أعرف أين أنا.

قال:

. أنت في أمن وأمان.

من بين الحاضرين لمحت ممثلا يظهر في المسلسلات على شاشة التلفزيون وهو يضاحك امرأة عجوزا يضع على رأسها قبعة. بعد أن نال الحاضرون من الكؤوس والمملحات جاء من طلب من الحاضرين أن يستمعوا إلى الكلمة الترحيبية. وقفوا جميعا، فأقبلت العجوز التي تضع على رأسها القبة على المنصة، ثم ألقت خطابا باللسان العربي الفصيح، وقالت:

. أيها السيدات والسادة، مرحبا بكم. أنتم في بيتكم. أنتم في مكتب الاتصال الاسرائيلي المغربي.

أصبتني الدهشة. أهذا ما كان يخفيه عني الدكتور الغزواني؟ نظرت إليه فابتسم وقال لي:

. تابع الخطاب.

قالت تلك السيدة:

"أنا أقدم لكم اسمي. العالية. بنت ملاح فاس. هناك ولدت، وعشت طفولتي.

نحن في إسرائيل نحرص على السلم مع كل العرب، فإسرائيل، إن نظرتم إلى الخريطة، تجدونها في قلب البلدان العربية، والسلم مسألة حيوية ينبغي أن تهم كل الأطراف، ولا سلم بدون تطبيع للعلاقات بين دولة إسرائيل وبين الدول العربية، وعلى رأسها المغرب. إننا في هذا الاجتماع، ومن سبقوه، نسعى إلى إقناع كل الأطياف التي تمثل المجتمع المدني بأهمية قبول مسألة التطبيع، لأنها هي الطريق الأمثل نحو السلم في المنطقة العربية، أما بالنسبة للمغرب، فاليهود المغاربة يحتلون نسبة كبيرة من سكان إسرائيل، وهم يحتفظون بكل تفاصيل الحياة الاجتماعية التي

عاشوه في بلدهم الأصلي، بل إن من بينهم من ارتقوا إلى أعلى درجات سلم السلطة في إسرائيل. نحن نفخر، بأن جرءا من سكان إسرائيل مغاربة، مثلما أنا يهودية مغربية من فاس، ولدت في المَلاَّح، ثم هاجرت مع أهلي إلى إسرائيل عام ١٩٤٨. أنا مثلكم، أغنى الأغاني الشعبية، وأتكلم باللهجة المغربية، وأعيش حياتي في إسرائيل كمغربية. أليس هذا كافيا لأن تدعموا رغبة دولة إسرائيل في المصالحة مع كل العرب، بما فيهم الفلسطينيين، ونبذ العنف، والتوجه نحو سلام دائم تزدهر خلاله منطقتنا. لكن كل هذا لن يكون بدون التطبيع مع إسرائيل".

صفق الحاضرون. انحنت العالية أمامهم. دعتهم إلى قاعة الطعام.

كنت مدهوشا، لا أتوقع ما خطط له الدكتور الغزواني. عندما أراد أن أتوجه معه إلى قاعة الطعام تظاهرت بأنني سوف أدخل بيت النظافة، وحينما غافلته اتجهت نحو باب الفيلا أريد الخروج، فوقف أمامي شاب مؤدب، وقال لي:

ـ مائدة الغذاء تنتظرك.

قلت له:

ـ أعرف ذلك، لكني تلقيت خبرا بمرض ألم بزوجتي في فاس وعلي كطبيب أن أذهب لإسعافها.

سمح لي بالخروج. اتجهت نحو المرأب، وركبت السيارة ثم عدت إلى مرتيل. في الطريق أجهشت بالبكاء، ثم مسحت دموعي وأخذت أغني: "أحب عمر موسي، وأكره إسرائيل".

في صباح الاثنين بدأت حملة ضد الدكتور الغزواني، مع كل أصدقائي المقربين، الشاعر حسن الديباجي، والأستاذ عرفة الورزازي، حملنا خلالها الشارة الفلسطينية، وقاومنا كل خطة للتطبيع مع إسرائيل.

رحيمة

اسمها يوحي بالرحمة وهي لم ترحم نفسها ولم ترحم بناتها ولا رحمت أحدا من بنات الحي اللواتي أجهضتهن. هي ممرضة تعمل في مستوصف مرتيل. هي أم البنات نسرين ونهاد ونجوى. سمراء مدينة القامة بخلاف بناتها القصيرات الماكرات. رغم أنها فوق الأربعين فهي مليحة. الكل يعرف أنها جاءت من نواحي مراكش، حيث كانت تعمل ممرضة في أحد المستوصفات هناك، في بداية السبعينات إلى مرتيل، للعمل كممرضة في مستوصف مرتيل. جاءت ومعها ثلاث بنات صغيرات كانت كل صباح تأخذهن إلى روض الأطفال "الأمومة" القريب من المستوصف، وهن يبدون لمن يراهن كتوائم، سمراوات مليحات، وما كان يجعل بعض من يتابعون مشهد أخذ رحيمة لبناتها الثلاث على أنهن توائم هن أنها كانت تُلْبِسُهُنَّ لباساً موحداً. كنت من بين من رأوها على تلك الحال. لم يخطر على بالي في ذلك الوقت أن البنات سوف يكبرن ليرتدن المراقص كل ليلة.

عندما جاءت رحمة إلى مرتيل غيرت اسمها قليلا، فأصبحت تدعى رحيمة، وهو الاسم المتداول في الشمال لاسم رحمة. يبدو أنها قد اعتادت اسمها الجديد. كان الجميع يعرف أنها مطلقة، ومن تكتمها على حياتها الخاصة لم تخبر أحداً بأسباب الطلاق. لم يظهر زوجها السابق في يوم من الأيام ليسأل عن بناته. لكنها من حسن حظها التقت بي فاكترت لها داراً واسعة تقع قبالة الكنيسة، بها أربع غرف فسيحة كلها مبلطة الجدران بالزليج الإسباني المذهب، وبها طابق علوي يحتوي على غرفتين للنوم وحمام، أما طابقها السفلي فتوجد وراء غرفه حديقة بها أشجار وأغراس طافحة. كان ذلك في أواخر السبعينات أو بداية الثمانينات، حيث كان أجر الكراء رخيصا، ولم يكن أحد يعرف كيف سوف تتحول الأمور.

حتى شاطئ مرتيل كان لا يرتاده في الصيف سوى عدد قليل من الناس، وهو ما لم يكن يطرح فكرة أن يكتري مالك بيته مرتين في السنة، واحدة لعشرة أشهر وأخرى للشهرين في الصيف.

لم تحلم تلك الشابة السمراء، النحيفة الجسد، التي كانت تجر من ورائها خمس بنات صغيرات بأن تسكن في دار كتلك التي وصفتها لكم، ولو لم تطلعني على ورقة الانتقال للعمل كممرضة في مستوصف مرتيل لما أقنعت المالك بأن يكتري لها ذلك البيت الرائع الذي أفرغه مدرس بثانوية جابر بن حيان بعد أن طلق زوجته وانتقل للتدريس في الدار البيضاء.

استقرت رحيمة في البيت وأخذت تقوم بتأثيث الغرف واحدة بعد الأخرى. كانت هي من تَحْقِنُ الحقن الطبية لبعض المرضى. في كثير من المرات احتجت إليها من أجل أن تحقنني بالحقن التي وصفها لي الدكتور سعيد الرفاعي، فلما دخلت البيت وجدته على أثاث حسن. ثم جاءت الأخبار بأنها تقوم بعمليات إجهاض في البيت نفسه لبنات صغيرات يحملن من السفاح مقابل مبالغ مالية معلومة، وبالرغم من سرية تلك العمليات فلا شيء يخفى على الناس في مرتيل.

من أجل التغطية على موضوع الإجهاض فقد أصبحت مولدة تُوَلِّدُ بعض النساء الحوامل في بيوتهن.

في ذلك الوقت لم تكن في مرتيل مصحة للتوليد، وكان الرجل الذي يغامر بأخذ زوجته الحامل بسيارة تاكسي في منتصف الليل أو آخره يجدها تضع حملها داخل سيارة التاكسي، فيكفر سائق التاكسي برب العالمين وهو يندم على حمل تلك المرأة الحامل في سيارته وحيث انفتق ذلك الكيس الواقي للجنين وتدفق ماؤه في السيارة ثم ما توجعت المرأة حتى خرج الجنين من بطن أمه في السيارة.، وهو يحتاج بسرعة إلى قطع حبل الصرة، كما تحتاج أمه إخراج المشيمة، وسائق

الطاكسي ليس مولداً للنساء حتى يتوقف في منتصف الطريق بين مرتيل وتطوان ليقوم بذلك العمل. لهذا كان يجدف على الله ويلعن دينه ودين أمه وأبيه، فقد تموت المرأة الواضع في السيارة أو يموت الوليد الذي خرج من بطن أمه فيذهب إلى السجن، مقابل خمسين درهماً هي الأجرة التي سوف يتقاضاها على نقل امرأة حامل إلى مستشفى الولادة بـ (سانية الرمل) بتطوان.

لم تكن بمرتيل سوى سيارة إسعاف واحدة، ولم توجد أية شاحنة لنقل الأزبال، بل كان جَرَّارٌ من خلفه خزان كبير فيه تُلقى الأزبال، يسوقه رجل كث الشاربين، وهو نفسه من يوقف الجَرَّار وينزل ليقذف بالأزبال في الخزان، وهو نفسه من أصبح فيما بعد سائقاً لأول سيارة إسعاف تسلمتها بلدية مرتيل من وزارة الصحة. كانت السيارة تصاب بالأعطاب فتتوقف في منتصف الطريق بين مرتيل ومستشفى (سانية الرمل) في تطوان، ليبقى من ينزف ونزيفه يزداد، وإن كانت امرأة حامل جاءها الطلق فهي تلد مولودها داخل السيارة، كما تسبب السائق في حوادث جسيمة أخذ إثرها إلى المستشفى هو ومن تحمله سيارة الإسعاف. أما إن شب حريق فيجب الانتظار إلى أن تحضر سيارة الإطفاء من تطوان، وهي لا تحضر إلا بعد أن يكون الحريق قد أكل كل شيء واتسع ليشمل المناطق المجاورة.

اشتهرت رحيمة كمولدة تُوَلِّدُ النساء في بيوتهن، وخاصة منهن من يجدن صعوبة في الانتقال من مرتيل إلى جناح الولادة في مستشفى (سانية الرمل) بتطوان، فاستفادت رحيمة من هذه الأوضاع، واشتهرت كمولدة، تزور البيوت من أجل توليد النساء، إلى جانب عملها اليومي في مستشفى مرتيل.

السر الذي كان مكشوفا عند سكان الحي هو أن رحيمة كانت تُجري عمليات الإجهاض في بيتها. تلجأ إليها بنات قاصرات حملن من السفاح

فيتساومن معها على المبلغ. مبلغ تدفعه الفتاة القاصرة مما تدبره من تبرعات صديقاتها أو مما جمعته من ليال قضتها مع بعض المترفين، وإن اضطرتها الظروف إلى سرقة فهي تسرق لتتخلص من زلتها. ولا يهمنا أمر الفتيات القاصرات اللواتي لا يجدن تخلصا من زلاتهن سوى رحيمة، فقد كانت رحيمة ترفض إجراء عملية الإجهاض إن كان الجنين قد تجاوز ثلاثة أشهر. ما يهمنا في قصة رحيمة، هو أنها أم لبنتين هما نسرين ونهاد. نسرين تزوجت من عجوز إسباني ثري أورثها كل أملاكه فعادت في زيارة إلى مرتيل من إسبانيا وهي تسوق سيارة رباعية الدفع، ونهاد أصبحت عارضة أزياء،.

تقدمت رحيمة في السن، واشترت سيارة كبيرة من تلك السيارات المستعملة التي انقضى عمرها الافتراضي فأخذت تخطر بها في شوارع المدينة. لكن أحدا من سكان المدجينة لم يتوقع أحد أن يرى صورها معلقة على تلك الخانات المخصصة للمرشحين للانتخابات البلدية، فقد فوجئ الجميع بترشيحها للانتخابات، في إطار ما قيل لنا عن حركات نسائية أوصت بأن يكون ثلث أعضاء البرلمان والمجالس البلدية والقروية من النساء. ونعم الاختيار، فقد بدأت رحيمة تقوم بحملتها الانتخابية مع حزب. شاهدت رحيمة وهي تنزل عن سيارتها وتقدم على حينا راجلة، لتطرق أبواب البيوت وتطلب من النساء التصويت لصالحها. كانت ترتدي سروال بلودجين ضيق وخاصرتها مشدودة بحزام عريض في وسطه قفل معدني على هيئة ثعبان، وقميصاً شفافاً رماني اللون، وهي تسير مع رهط من الشبان والشابات المدفوع أجرهم عن كل يوم عمل يعملون معها في الحملة الانتخابية. لكن رحيمة لم تنجح في الانتخابات، ثم غالدرت مرتيل وطواها النسيان.

الفصل الثالث

الرياضي

الورداني

كان كل يوم يمر أمامنا ونحن نجلس في المقهى. تميزه خصلة من شعره، مفتولة تسترخل على خده الأيمن، وكان من يرنه يمر يقولون لبعضهم:

ـ هذا هو الورداني. كان أفضل لاعب لكرة القدم مع ريال مدريد.

يدور الحديث حول مرتيل التي أعطت لاعبين كبارا للفريقين الإسبانيين المتنافسين: بارصا والريال مدريد، فلعبوا في صفوفهما وحققوا لهما الفوز. لكن سكان مرتيل بقوا منقسمين على أنفسهم بين مشجع لبارصا ومشجع للريال مدريد، حتى إن حروبا تقع بين شبان يناصرون هذا الفريق أو ذاك. أما في مواعيد الباريات بين الفريقين فالمدينة تخلو من سكانها، فلا سيارات تعبر الشارع، ولا مارة، والكل في المقاهي يتابع المقابلة بين الفريقين.

أنا لا أحب ذلك الصخب، والصفير، والهتافات، والتعليقات، التي يقوم بها من يتفرجون على المقابلة، بل إنني لا أحب كرة القدم، ولا أميل إليها، لذلك أخلد إلى بيتي وأطبخ تعاما أتعشى منه، ثم أرسي جهاز التلفزيون على قناة تبث مسلسلا تركيا، وأنا أعلم أنني في عالم وسكان مرتيل في عالم آخر.

سمعنا عن الورداني أن فريق ريال مدريد كان قد استقطبه، وأنه قد سدد عدة أهداف أتت بالنصر لفريقه ضد فريق بارصا. ذلك كان، فما نراه اليوم من الورداني هو أنه شاب مخبول، يقضي نهاره في التجول بين المقاهي يستجدي السجائر، وعندما يجوع يقف أمام أحد المطاعم ليقدم له صاحبه ما يقتات به. الكل يعتبر الورداني من مجانين مرتيل، فهو هائم على وجهه في المدينة طوال الليل والنهار، لا يعرف أحد أين يبيت وأن يسكن. حتى من يذكرون المجد الذي عاشه أيام كان لاعبا مع فريق الريال مدريد لا يسمحون له بأن يجالسهم في المقهى

للرائحة الكريهة التي تفوح من ملابسه، فهو لا يستحم، يجول كل يوم على الشاطيء ولا يخطر على باله أن يلقي بنفسه في ماء البحر فيغسل جسده وثوبه، لكنه لا يفعل. أنا لم أكن أرتاح له، لنظراته التي ينظر بها للناس، وهي تشي بروح شريرة، كما سمعت أنه أنه كان يقبل كل صباح على على محل يفطر فيه المفطرون، فترفق به صاحبه وأمر العمال بأن يقدموا له وجبة الفطور، فتعود عليها، وفي يوم أخبره العامل بأن آلة تحضير القهوة لم تسخن، وعندما سخنت قدم العامل الزبائن على الوداني، فغضب وهجم على المحل فحطم الكؤوس والأكواب وفصل آلة تحضير القهوة عن مكانها ثم رمى بها إلى الأرض. أمر صاحب المحل العامل بألا يقدم للورداني شيئا بعد ذلك اليوم، لكنه قصد محلات أخرى لتقديم الفطور، فوجد من يعطف عليه، ويقدم له ما يقتات منه.

مرت السنون، وكل سكان مرتيل يعتبرون الورداني واحدا من مجانين المدينة، ثم جاء يوم ظهرت فيه في مرتيل شابة إسبانية جميلة، أنيقة في لباسها الشبابي، مسترسلة الشعر، تعرف عليه بعض شبان المدينة فعرفوا أن اسمها لورين، وهي تتسأل عن لاعب سابق في فريق الريال مدريد، اسمه الورداني. أخبروها بأنه مجنون يطوف بالمقاهي يتسول السجائر. قالت لهم:

ـ أحب أن أراه.

سألوها عن علاقتها به، فأخفت عنهم أمرها. وأنا في (مقهى الياسمين)، جاء بها إلي شاب من أولائك الشبان، وأخبرني بأنها تقيم في (فندق الرباط) وترغب في كراء شقة لبعض الأيام. لكوني لا أتكلم اللغة الإسبانية، فقد توسط ذلك الشاب بيننا إلى أن أخذتها إلى شقة مفروشة، فأعجبتها، وعندما عرضت عليها الثمن وافقت. دخلت الشقة، ووضعت بها حقيبتها. قالت للشاب الذي كان يرافقها:

ـ لنخرج.

سألها:

. أتريدين الذهاب إلى مطعم؟

قالت:

. ليس قبل أن نتجول في المدينة.

طلبت مني أن أرافقهما. لم أجد فائدة في ذلك، لكنها ألحت عليّ، وطلبت من الشاب أن يسألني هل أعرف الورداني، فتساءلت:

. اللاعب السابق مع فريق ريال مدريد؟

قالت:

. هو.

وسألتني:

. هل تعرف أين هو؟

أخبرتها بأنه يجول في الشوارع طوال نهاره، وأحيانا يجول على الشاطيء.

قالت:

. أحب أن أراه.

وطلبت مساعدتي. قالت إن اسمها لورا، وأطلعتنا على صور قديمة يظهر فيها الورداني شابا حيويا يرتدي القميص الرياضي. سألها الشاب:

. هل أنت من فريق ريال مدريد؟

قالت:

. بل أنا ابنة الورداني.

طفنا في الشوارع بحثا عنه، ننظر إلى الطريق وأرصفة المقاهي. تجولنا على طول الشاطيء فلم نجده. بدت لورا قلقة. أخذها الشاب إلى (مطعم الأندلس)، ففارقتهما. في صباح الغد، وأنا أجلس في (مقهى الياسمين)، أقبلت عليَّ لورا ومعها ذلك الشاب. عرفت أن مُحَمَّد الورداني لن يكون في هذا الوقت إلا وهو يقف أمام محل من المحلات التي تقدم الفطور. رافقتهما للبحث عنه. وجدناه يأخذ كوبا من القهوة والحليب في يده. قلت لها:

ـ ها هو.

عندما رأت منظره أشفقت عليه، وطفرت الدموع من عينيها. وبدت مرتبكة. طلبت من الشاب أن نتركه على حاله إلى يفرغ من شرب القهوة والحليب. رآنا وتجاهلنا، أدار وجهه معرضا عنا. عندما سلم الكأس الفارغة للعامل في المحل، استدار نحونا. أقبلت عليه لورا. وقفا وجها لوجه. كادت تعانقه. قالت له:

ـ أنا لورا ابنتك، وأنت أبي.

لم يرد عليها، ولم تعبر ملامحه عن شيء.

قالت له:

ـ تتذكر والدتي، إيلينا؟

عندما سمع الاسم أخذ يحدق فيها. أمسكته من ذراعه فانصاع لها. سارا معاً، وأنا وذلك الشاب نتبعهما. أخذت تحدثه وهو يسير معها. اعتبرت أن مهمتي قد انتهت. وعندما أشرت لها بإشارة الوداع طلبت مني أن أبقى. سألتها هل تطلب مني شيئا فقالت:

ـ ما زلت أحتاج إلى مساعدتك.

كما يعرف كل سكان المدينة الورداني، لا يتكلم مع أحد حتى وهو ليس أصم أو أبكم، فقد بقيت لورا تحدثه وهو صامت.

سألتها عما تطلب مني فقالت:

. أريد منك أنت وهذا الشاب أن تأخذا والدي إلى حلاق يقص شعره، وإلى حمام عمومي ليستحم.

قدمت لي ورقة مائة أورو، فطلبت منها أن نقدمها لمرافقها. نظرت إلى الخصلة التي تتدلى حتى تكاد تغطي عينه اليمنى، وحسبت الورداني لن يذهن للحلاق، لكنه قدم له رأسه واستسلم. خلال الحلاقة اشترت لورا لوالدها ملابس جديدة، وحذاء رياضيا، ثم طلبت منا أن نأخذه للحمام.دخل معه ذلك الشاب، وبقيت أما في الجلسة. عندما خرجا ساعدت الورداني على ارتداء ملابسه الجديدة، وكومت أسماله في كيس ثم أشرت على عامل الحمام بأن يرميها في المزبلة. استقبلته لورا فرحة. قالت لنا:

. والدي كان كما قالت لي أمي بعد أن يغسل في الحمام يدلق قارورة كاملة من أنفس العطور على جسده.

ثم أخرجت من حقيبة يدها قارورة عطر ورشت عليه، فبدا منتعشا، يكاد يخرج من شروده. تركت الحقيبة مفتوحة، ثم أخرجت منها جواز سفر إسباني تظهر عليه صورة الورداني الشاب، باسم مُحَّد الورداني، وبطاقة لاعب مع وأطلعته عليه. لم يُبد أي تعبير. أطلعته على بطاقة العضوية في فريق ريال مدريد، وبطاقات بنكية، وبعض صوره باللباس الرياضي وهو في الميدان. نظر إليها بكثير من الإمعان. قالت لنا:

. هذه هي وثائقه، سوف أقدمها لقنصلية إسبانيا في تطوان لأحصل له على

جواز سفر، فهو يتوفر على الجنسية الإسبانية.

سألها ذلك الشاب:

ـ هل ستعيدينه معك إلى إسبانيا؟

قالت:

ـ بالضرورة. لن يبقى هنا مشردا. سوف آخذه إلى طبيب نفساني، وعندما يرى والدتي سوف تعود إليه الذاكرة.

قدمت لي ورقتين من فئة مائة أورو وقالت لي:

ـ سوف أبقى في الشقة أنا ووالدي إلى أن أحصل له على وثائق السفر، سأراك في المقهى إن احتجت إليك.

شكرتني. نظر الورداني إليَّ بنظرة بلهاء.

خلال الأيام التي أعقبت ذلك اليوم كنت أراهما يتعشيان في المطاعم ويسيران في الشوارع وهي تمسك بذراعه وهو مستسلم لها. غادرا مرتيل، ولم يعد للورداني أي وجود في المدينة.

مسيو ألان

الفيلا التي كانت شبه متوحشة، قامت عليها عمارة من أربع طوابق. عمارة عصرية يوجد من تحتها مقهى ومحل لمخبزة وبيع الحلويات.

تلك الفيلا التي كانت شبه خربة لا يذكرها أحد اليوم، لأن آثارها امحت ونهضت على بقعتها الأرضية تلك العمارة ذات التصميم الهندسي الراقي. ومن لا يتذكرون تلك الفيلا لا يتذكرون ذلك الفرنسي الشاب المسيو ألان، الذي كان

قد اشتراها من مالكها الإسباني السنيور أدولفو خمينيس عندما قرر العودة إلى إسبانيا. كان يملك مراكب صيد وأرض فلاحية وتربية للأبقار وتسمين العجول في (خميس الانجرة). كان يسوق سيارة لاندروفر سوداء والقبعة المكسيكية على رأسه وهو يدخن السيگار الكوبي، وفي صباح يوم الأحد عندما ترن أجراس الكنيسة كان يأتي للصلاة ببذلة أنيقة ورائحة العطر تفوح منه. أما في مساء يوم السبت فكان يرافق زوجته السنيورة خوانيطا إلى (حانة الشاطئ)، التي كانت تتوفر على حلبة للرقص، فيرقص معها على إيقاعات الفلامينكو التي كان يعزفها جوق قيل إنه يأتي كل ليلة سبت من مالقا. أيام جميلة عاشها الأسبان في مرتيل، لاحظتها عندما كنت بائعا متجولا، آتي بما في يديَّ من بضاعة إلى (حانة الشاطيء)، فأرى الفرح على الوجوه، مغاربة وإسبان على حد سواء.

عندما اشترى مسيو ألان الفيلا، وهو صاحب معمل في المنطقة الصناعية، رغب في ترميمها وإصلاح حديقتها، لكن ذلك لم يتم، فقد تعرف على شابة مرتيلية واحبها فأخذ يرافقها إلى المطاعم والمراقص، وكان كما قال لنا الدكتور الرفاعي يبالغ في الشرب، وذلك ما جعله مضابا بالتهاب في الكبد. نصحه الدكتور بالكف عن الشرب، لكنه لم يمتثل، فزاد مرضه. كتب الفيلا باسم صاحبته المرتيلية، حبيبة، ابنة حينا، وأصبح عصبي المزاج، يخاصمها كل يوم، ثم يصالحها. ذات يوم دعا الدكتور الرفاعي إلى الفيلا فوجده في أسوأ حال، يستنشق الكوكايين، ويشرب الويسكي، وقد أخذ مشرطا شرط به ذراعه الأيسر، كأنه ينتقم من نفسه. أشفق عليه الدكتور الرفاعي، وقال له:

ـ الأدوية التي عندي لا تتناسب مع ما تفعل بنفسك.

عندما سأله عما به أخبره بأنه كتب الفيلا باسم حبيبة، وهي تطمع في أن يكتب لها المعمل. قال له الدكتور الرفاعي:

. أنا طبيب، ولا يمكنني التدخل في هذه الأمور. ظهر الأسى على وجه مسيو ألان، وقال له:

. أعرف ذلك. لكنك صديقي وطبيبي، وطبيب عمال المعمل الذي أملكه في المنطقة الصناعية.

نصحه الدكتور الرفاعي بأن يتوقف عما يفعله بنفسه، وبعد ذلك يتناول بعض المهدئات، ويخلد إلى الراحة، ثم غادره.

بعد أيام اتصلت حبيبة بالدكتور الرفاعي وأخبرته بأن ألان قد انتحر. سألها:

. هل دعوتِ البوليس؟

قالت:

. إنهم في الطريق.

ترك عمله في العيادة، وقصد الفيلا. عند الباب شاهدا جمعا من الناس جاء بهم الفضول، وهم يتسقطون الأخبار. لم يتمكن من دخول الفيلا. عندما حضر رجال الشرطة القضائية أبعدوا الواقفين عند الباب، ولم يسمحوا إلا لحبيبة والدكتور الرفاعي بالدخول. أخبرنا بأنه وجد ألان وهو يجلس على كرسي ويده اليسرى مسترخية، شرايينها مقطوعة عند المعصم، والدم يغطي السجاد ويسيح على الأرض. كان مفتوح العينين، كأنه ينظر إلى شفرة الحلاقة التي وجدت بجواره أو إلى معصم يده اليسرى النازف.

تم حجز حبيبة ليومين على سبيل التحقيق، ثم أطلق سراحها بعد أن لم توجه لها أية إدانة.

مر شهر على انتحار ألان، فاتصلت بي حبيبة وأخبرتني بأنها ترغب في بيع الفيلا. أجريت العديد من الاتصالات مع ذوي المال، إلى أن التقيت مع شاكر،

فزار الفيلا وأطلعته حبيبة على العقد الذي يشهد فيه ألان على أنه باعها الفيلا وتقاضى الثمن. ما هم شاكر هو أصل الملك، وصحة العقد، والمساحة الأرضية. اتفق مع حبيبة على الثمن، وأحضرانا معهما عند الموثق، فكتب عقد البيع لشاكر، وتقاضت حبيبة خمسمائة مليون سنتيم. مبلغ لم تكن لتحلم به أبدا. أعطاني شاكر نصيبي، أما هي فقالت لي:

ـ نصيب السمسار يأخذه من المشتري لا من البائع.

أيام مضت، فجاءت الجرافات والأليات، فدكت البناية، وبدأ وضع الأسس، إلى أن ظهرت عمارة من أربع طبقات، لم تشهد مرتيل مثيلا لها من حيث الشكل والجمال.

عرفة الورزازي

الدكتور عرفة الورزازي أستاذ الأدب الفرنسي بكلية الآداب بتطوان، كهل أسمر، ترتسم على محياه ابتسامة غامضة. عرفني عليه أحد من يأتونني بالزبائن من أجل أن أجد لهم شقة مناسبة. على سمرته التي تقترب من السواد، كان يرتدي بذلة بيضاء من تحتها قميص كحلي. عندما عرفت أنه أستاذ جامعي رحبت به، وسألأته عن طبيعة الشقة التي يريدها، فأخبرني بأنه مطلق، وقد ترك زوجته وابنته في فرنسا، وبعد أن عمل في جامعة السربون مدرسا، جاء للعمل في جامعة عبد المالك السعدي. قال إنه يرغب في شقة صغيرة ونظيفة، في حي هاديء، وعمارة سكانها محترمون. أخذته إلى نفس العمارة التي يقيم فيها الشاعر حسن الديباجي، وهي تقع في (شارع ميرامار). أطلعته على شقة مفروشة، بها أثاث حسن، فأعجبته، وذهب ليمضي عقد الكراء مع صاحب العمارة، ثم عاد إلى المقهى وقد

تسلم المفتاح، فنقدني أكثر مما توقعت. شكرته، وما هي إلا أيام حتى عرفته على جاره حسن الديباجي، المدرس في ثانوية مرتيل، فجرت الصداقة بينهما. تعرف الدكتور عرفة على إدريس حارس العمارة فأخذ يرسله ليشتري له بعض ما يحتاج إليه، وكما أخبرني إدريس، فقد كان كريما معه. عندما أخبره إدريس بأنه حاصل على الإجازة من كلية الآداب، بدا عرفة متعجبا، وقال له:

ـ حاصل على الإجازة وتعمل حارسا في عمارة؟

قال له إدريس:

ـ تعرضت للبطالة، ولم أجد سبيلاً للحصول على لقمة العيش إلا في هذه العمارة.

بدت الحسرة على وجه الدكتور عرفة. قال لإدريس:

ـ الصبر جميل.

ذكر لي إدريس أن الدكتور عرفة رجل نبيل، طيب وكريم، يحب الناس ويجلب لنفسه محبتهم.

مرت أيام فرأيت الدكتور عرفة يجلس في (مقهى الياسمين). حييته وسألته عن الأحوال فرد علي بأن كل شيء على ما يرام. لم يدعني لمجالسته فعدت إلى مكان جلوسي بعيدا عنه. عندما أردت أن أدفع للنادل عبد المولى ثمن ما شربت أخبرني بأن ذلك السيد قد دفع عني، وأشار إلى الدكتور عرفة. بعد يومين رأيته يجلس في المقهى مع الشاعر حسن الديباجي. حييتهما وانصرفت. ثم مر يوم فرأيتهما يسيران في الكورنيش وهما يتحدثان. عرفت أن صداقة قد انعقدت بينهما. أفرحني ذلك. مر أكثر من عام، ألف فيه الدكتور عرفة العيش في مرتيل، وأصبح يصاحب بعض طلبته، وخلال ذلك وضع البرنامج الثقافي لدار الثقافة، الذي

شارك فيه المؤرخ بمحاضرة، وحسن الديباجي بقراءة شعرية.

أخبرني حسن الديباجي بأن الدكتور عرفة قد دعاه للسهر معه في بيته، فعرفت أنها سهرة خمرية، لم يدعني إليها الدكتور عرفة، لكونه يعرف أنني لا أشرب الخمر.

في تلك السهرة، باح الدكتور عرفة لحسن بالمشكلة التي عاشها في باريس، مع زوجته الفرنسية. قال:

"في باريس تعرفت على أنيط. أحببتها وأحبتني. كنا معا، ندرس في الجامعة، ونهيء شهادة الدكتوراه، أنا في اختصاص الأدب الفرنسي وهي في اختصاص علم الاجتماع. عشنا أيام ذلك الحب الجميل. تسكعنا في الشوارع وتعشينا في المطاعم. كنا نعرف أن كل واحد منا يختلف عن الآخر بحكم البيئة والعادات، كما أنها مسيحية وأنا مسلم، فحاولنا أن نذيب الفوارق، وأن نغذي مشاعر الحب. وجدت منصبا في الجامعة، وقررنا الزواج. اكترينا شقة وعشنا معا. ظهر الحمل الأول على أنيط. أنجبت بنتاً رائعة الجمال، أخذت مني شيئا من سمرتي. تعلقت بها، أسميناها سارة. بدأت تكبر، وبقدر ما تعلقت بها تعلقت بي هي الأخرى، فانشغلت بها، وأصبحت أخرج معها إلى الحدائق، وأشتري لها اللعب وأوراق وأقلام الرسم، ربما أكون قد أهملت شيئا من علاقتي مع أنيط، فشعرت بأنها أصبحت منطوية على نفسها، إن دعوتها للخروج معنا أنا وسارة تفضل أن تبقى البيت وحدها. لم تكن لي يد في هذا الأمر، وقد كان على أنيط أن تشاركني في حب سارة واللعب معها، لكنها تركتها لي، وانزوت عنا، حتى إنها أصبحت تخفي عني بعض الأمور، كما انحلت علاقتنا مع بعض الأصدقاء الفرنسيين، فلم نعد نستقبلهم في بيتنا ولم يعودوا يدعوننا إلى بيوتهم كما كان في السابق.

أقول لك يا صديقي حسن، أن سارت كبرت، وبلغت التاسعة من عمرها،

وأنا على حبها وهي على حبي، نتحدث ونتصارح وأسمع إلى ما تعلمته في المدرسة من قيم، وأراجع معها دروسها، أما أنيط فقد ظل منطوية، تخفي عني ما تشعر به، تظل جالسة في صمت وهي تدخن السجائر وتشرب كأسا بعد أخرى من النبيذ. كم من مرة سألتها عما بها فلم تخبرني، وكم من مرة عانقتها وأنا أتحمل جفاءه وطلبت منها أن تبوح لي بما تشعر به، لكن جفاءها كان يزداد، ولم تخبرني عما بها.

انطفأت حرارة الحب، ورأيت أن أترك أنيط لحالها، إلى أن جاء يوم رأتني فيه أجلس ابنتي سارة، وهي ابنة العاشرة في حجري، وأحكي لها بعض الحكايات، قبل نومها، وعندما ارتخى جفناها حملتها وأخذتها إلى فراشها. لحقت بي أنيط وقالت لي:

ـ نم معها.

قلت لها ببراءة، ودون أنأفهم ما تقصد.

ـ لقد نامت، وأنا سوف أنام معك في فراشها.

قالت:

ـ لا تأت. نم معها في فراشها وضاجعها.

عجبت لما قالت، وقلت لها:

ـ سارة ابنتي، وأنا أبوها. ما بيني وبينها هو الحب الذي يتدفق في قلب الأب، وأنا لم أشعر في يوم من الأيام، كما يُخيل لكِ خيالك المريض، بأي اشتهاء لجسد البنت الصغيرة.

قالت:

ـ إذا كنت لا تشهي جسدها اليوم فسوف تشتهيه غدا.

توتر الحديث بيننا. حدثتها عن ديننا الإسلامي الذي يُحرم العلاقة الجنسية مع المحارم، الأم والأخت والبنت. ضحكت وقالت:

ـ دينكم يحرم ذلك، لكن الممارسة شيء آخر. في ديننا يظهر القساوسة والرهبان متورعين عن أمور الدنيا، لا يقربون امرأة، لكنهم يغتصبون الصبيان، وأنا كباحثة اجتماعية، لدي من الوثائق والصور ما يُثبت ذلك.

قلت لها:

ـ هذا ما يقع في الكنيسة، أما ما يقع في بيتنا، فهو حب بين أم وابنته، من القلب إلى القلب، ولا علاقة له بالجسد.

قالت:

ـ سارة في المرحلة التي يسمكيها سيكموند فرويد مرحلة الكمون، وأحاسيسها تجاهك، تتجاوز حب ابنة لأبيها، إلى أن تجد في جسده الرجل الذي يشبع رغباتها.

سألتها:

ـ يا أنيط، هل عشت هذا مع والدك؟

قالت:

ـ والدي كان وأن في سن أنيط يتظاهر بأنه لا يعرفني. لم يقبلني على خدي ولم يُجلسني على حجره كما تفعل أنت مع أنيط. لم أشعر معه بمشاعر الأبوة.

قلت لها:

ـ هنا تبدو العلاقة بين الأب وابنه، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين، فإما أن يتجاهلها وهي في مرحلة تستدعي أن تحظى بالحب والحنان، وإما أن تتعرض

للتباعد بينها وبين والدها.

قالت:

ـ لا داعي لأن نطيل في النقاش. أنا أعرف أن رغبتك العاطفية والجنسية قد تحولت من علاقتي معك كزوجة إلى علاقتك مع ابنتك سارة.

شعرت بالألم، وباتهام أنا بريء منه. راجعت نفسي فوجدت أنني عندما أقبل خد سارة، أو أحضنها، أو أُجلسها فوق حجري، فأنا لا أشعر بأية رغبة جنسية، بل أشعر بدفق من الحنان والحب أمنحهما لابنتي.

في يوم ما قالت لي:

ـ أنت تتحرش جنسيا بابنتك، وغدا سوف أرفع بك شكاية إلى القضاء.

لزمت الصمت، حتى لا أدخل في خصومة معها. في الحقيقة، لم أصدق أنها سوف ترفع تلك الشكاية، لكني بعد أيام توصلت بإشعار للقدوم إلى مركز الشرطة. أخبرني الضابط بأن زوجتي ترفع عليَّ دعوى التحرش بابنتنا سارة. سألني عن الرد، فأخبرته بأن كل ادعاء زوجتي باطل، وأنها تعاني من مرض نفساني. كتب أقوالي.

عندما عدت إلى البيت واجهتني سارة بجفاء. ابتعدت عني، وأخذت تحطم كل اللعب التي اشتريتها لها. دعوت أنيط إلى جلسة للحوار، كما يفعل المثقفون والناس المتحضرون، فرفضت، وقالت لي:

ـ بيننا المحكمة.

في جلسة المحكمة، وبحضور أنيط وسارة، سألني القاضي:

ـ هل تحرشت بابنتك سارة جنسياً؟

أجبت بالنفي.

سأل القاضي سارة:

ـ هل تحرش بك والدك جنسياً؟

أجابت بحركة من رأسها تدل على الإيجاب. ذهلت، وعرفت أن أمها قد لقتنها الجواب. قلت للقاضي:

ـ أنا أبرأ نفسي من الدعوى التي رفعتها زوجتي ضدي، وأطلب من المحكمة الموقرة استجواب ابنتي سارة عن علاقتي بها، من خلال التفاصيل اليومية، وأن تكون بعيدة عن التأثير النفسي الذي تمارسه عليها أمها.

قال لي القاضي:

ـ طلبك مقبول، لكني أسألك: ما هو الداعي لأن تقيم عليك زوجتك دعوى بالتحرش بابنتما؟

قلت له:

ـ سبق أن قلت إن زوجتي أنيط تعاني من وضع نفساني غير عادي.

مرة أخرى دعا القاضي سارة، وقال لها:

ـ كوني عاقلة، وأخبرينا، هل سبق لأبيك أن قبلك في فمك، أو أدخل أصابعه في وسطك، أو أمسك بصدرك؟

قالت:

ـ لا. لم يحدث ذلك.

سأل القاضي أنيط:

ـ بعدما سمعته من ابنتك، ما الذي تعتقدين أنه تحرش جنسي؟

ارتبكت، وقال:

. هو يعطيها من الاهتمام أكثر مما يعطيني.

قال لها القاضي:

. هذا لا يعني أنه يتحرش بها جنسيا، كما جاء في منطوق الدعوى القضائية.

ثم قرر رفع الجلسة للمداولة. وعندما عاد القضاة إلى المنصة جاء منطوق الحكم لصالحي، فبرأتني المحكمة، وحكمت لي بتعويض عن الشرف، أعلنت أنني أتنازل عنه، ثم خرجت من المحكمة وأنا في وضع نفسي سيء. لم أعد إلى البيت، بل أقمت في فندق، وقمت بإجراءات الطلاق. فارقت أنيط، وبقي حب سارة قائما في قلبي، أتصل بها بالهاتف بين حين وآخر، وأحقق لها رغباتها، وأسهر على أن تكون متفوقة في دراستها. بعد تنفيذ الطلاق طلبت منصبا للتدريس في جامعة عبد المالك السعدي، وها أنا قد حصلت عليه، وأصبحت أعيش بينكم في مرتيل"

تجربة مؤلمة عاشها الدكتور عرفة في باريس، حكاها لي حسن، كما حكاها له بنفسه. بعدها غاب عن الأنظار، وعندما سألني عنه حسن الديباجي قلت له:

. ربما يكون قد سافر إلى الرباط أو طنجة لقضاء بعض الأغراض.

كلمه بالهاتف فلم يرد. بعد يومين، قرع إدريس جرس باب بيته، فشم رائحة غريبة، ولم يأت الدكتور عرفة ليفتح الباب. أخبرني بالرائحة. اجتمعنا أنا وهو وحسن عبد الباب. شممنا رائحة تزكم الأنوف. دعونا الشرطة. عندما فتحوا الباب وجدوا الدكتور عرفة جثة متعفنة، يجلس على كرسي وأمامه مائدة انتشرت عليها صفحات جريدة لوموند الصادرة قبل خمسة أيام، صفحاتها مفتوحة، وساندويتش أكل نصفه والنصف الآخر سقط منه على الأرض. فوق المائدة علبة

مارلبورو ومشعلة ومفاتيح الشقة وحافظة نقود، وأوراقه الشخصية. أخذوه إلى مستودع الأموات بتطوان. قرر الطبيب الشرعي أن الموت قد حدث بسبب سكتة قلبية. في مستودع الأموات قاموا بتغسيله وتكفينه، ومنه خرجت جنازته التي سار وراءها أصدقاؤه وطلبته

تملكنا الأسى، فترحمنا عليه، واحتفظنا بذكراه

إبراهيم العباسي

كان يقول لي:

. آ السي عبد الرحمن، تلك الدار التي أسكنها في حي أحريق على وشك أن تنهار فوق رؤوس أولادي، والمالك لا يرغب في ترميمها. كل ما يعرفه هو المطالبة بأجر الكراء. البحر لا يعطي السمك، ولولا عمل زوجتي في البيوت لما وجدنا طعاما.

أُطَيِّبُ خاطره. يبدو غاضباً ويقول لي:

. كل الناس يشربون الماء من الصنابير وأنا وأولادي نشرب من ماء البئر.

يقول لي:

. أنت يا عبد الرحمن مجرد سمسار، ولكن ألا تتوسط لنا مع مالكي تلك الجحور التي نسكنها نحن وأولادنا ليخفضوا لنا من سومة الكراء؟

أرد عليه:

. ها قد قلتها. أنا مجرد سمسار.

أَسُلُّ الشعرة من العجين. يطلب مني أن أقرضه ألف فرنك. أعطيه إياها وأنا

أعرف أنه لن يردها وأنه سوف يشتري بها الحشيش.

يقول لي إبراهيم:

"في تلك السنوات التي مضت، كان بحر مرتيل يزخر بأنواع السمك. فضلاً عن الشطون والسردين كان الصيادون يُخرجون شباكهم ليجدوا فيها الشرغو والمحرقصة والروجي وأنواعاً أخرى من السمك. أما البولبو، وهو الأخطبوط، فكانوا يصطادونه بحراب حيث يدخل الصيادون إلى مستوى من ماء البحر فيطعنون تلك الحراب في الرمل وما يرفعونها حتى تكون قد أصابت أخطبوطاً يزن ثلاثة أو أربعة كيلوغرامات. أما المحار فقد كانوا يصطادونه بواسطة آلات تشبه المحاريث ترتبط بها شباك معدنية، يحرثون البحر فتجمع تلك الشباك المحار. كل ذلك لم يعد له اليوم من وجود. القوارب المتهالكة بمحركاتها المحدودة لا تدفع إلا نحو مسافة قريبة من البر والشباك تعود فارغة، بعد جذبها نحو الشاطئ بجهد جهيد من قبل عشرة رجال لا تظهر سوى بعض السردينات التي تتقافز ومعها أسماك تاغزالت الرخيصة الثمن، التي لا يقبل عليها إلا المعدمون وأشباههم، وغالبا ما يتصدق بها باعة السمك على من يأتون ليقفوا أمامهم مستجدين. إن كان هناك من فضوليين قد تجمعوا عند المكان الذي تخرج منه الشباك فهم ينسحبون ليبقى الصيادون وهم يشعرون بالخسران.

في ليالي الشتاء التي يعتو فيها البحر ويتعذر الصيد يسهر الصيادون في (مقهى بَّا عبد السلام). يلعبون البارتشي ويشربون الشاي الأسود. يتبادلون الشكوى من قهر الزمان وقلة الرزق وغلاء المعيشة. حياتهم مكشوفة أمام الجميع. كلهم يعرفون العبادي الصياد وزوجته هنية التي تعمل في المنطقة الصناعية في معمل لتقشير الكَامبا وشكواها الدائمة من أجرتها التي لا تكفيها لأداء الكراء وفاتورة الماء والإنفاق على البيت وشراء الأدوات المدرسية للأولاد. مزاجها

عصبي على الدوام. تقف عند باب المقهى وتشتم زوجها العبادي وأصدقاؤه الصيادون يسمعون شتائمها. تنظر إليه بنظرات حاقدة وتُعَيِّرُه بالبطالة وقضاء ليله ونهاره في المقهى. في البيت تشتم الأولاد وفي الحي تتخاصم مع الجارات. كل يوم تذهب إلى السوق فلا تشتري سوى البطاطا والخبز. تطبخ خمس أو ست حبات من البطاطا مع قليل من الزيت والقزبر والتوابل وهذا هو الغذاء والعشاء كل يوم. كل يوم بطاطا. تسمعها الجارات وهي تشكو الزمان من هذه البطاطا التي تسلطت عليها كل يوم فيقلن كان عليها أن تحمد الله على البطاطا. وكلهن يطبخن البطاطا، فلا شيء غيرها يُشبع جوع الأولاد. الواحدة منهن إن اشترت نصف كيلو من السردين أو من الكرشة فلابد أن تطبخهما مع البطاطا. لكن هنية في آخر الشهر يرتفع صراخها في البيت وتفضح زوجها العبادي الذي طلب منها ما يشتري به الكيف ويدفع ثمن كأس شاي في المقهى. تشتم هذا البحر الذي لا يعطي السمك. تشكو الله من زوجها الذي إن عطل عن الصيد فهو يطلب منها ما يشتري به الكيف وإن خرج مع الصيادين للبحر فهو يعود بتلك الرائحة الزفرة التي لا تطيق شمها في البيت. كل زوجات الصيادين يعرفون تلك الرائحة، ويتحملونها، بما فيهم زوجتي. أنا لا أذهب إلى الحمام العمومي إلا كل ليلة خميس، وهي الليلة التي لا يدخلون فيها البحر حتى وإن كانت أحوال الطقس تسمح بالصيد. يغيرون تلك الملابس التي تحمل رائحة السمك بملابس نظيفة. بعد أن العشاء ونوم الأولاد تشتعل الشهوة فيكون ما يفعله المرء مع زوجه، وهذا هو حال الصيادين".

طلب مني إبراهيم أن أدفع عنه ثمن كأس الشاي، ثم غادر المقهى وتركني أفكر الميناء الذي قيل لنا إن دولة أجنبية سوف تنشئه مقابل الفوسفاط، فبدأت أشغال التهيئة، لكنها توقفت، وما تزال متوقفة إلى الآن.

وها هو البحر، يجتاح حينا في ليالي الشتاء فيرمي بالرمال وبطرح عيدان أشجار وما في الأحشاء والقيعان. من الكورنيش يأتي ما يغزو حينا من طرح للبحر. ياخر عمال البلدية في إزاحة كثبان الرمل وما يطرحه البحر. ينهض سكان الحي ليشمروا عن سواعدهم، لكنهم لا يتوفرون على الآلات التي يمكن أن تُخرج من الحي ما طرحه البحر. يفسر رئيس البلدية تقاعس العمال عن العمل بكونهم يقومون بإزاحة كل ما يطرحه البحر ثم بعد أيام يعود إلى الهيجان فيلقي بطرحه. مشكلة لم تُحل مع البلدية، وبصفتي سمسارا، فقد أصبح الناس يرفضون السكن في دور أرضية بسيطة، سعر كرائها رخيص جدا، وذلك لكون البحر يطرح ما في أحشائه ساعة يكون المد. أما نحن سكان الحي فكنا نتخطى كل الأمور التاي يطرحها البحر، فنقفز فوقها إلى أن نصبح في الشارع.

الامبراطور

كل سكان حينا يذكرون ذلك الشاب الحليق الرأس الذي يغطي عينيه دائماً بنظارة سوداء، ربما لكي يتشبه بكبار رجال المافيا، أو لغرور قد أصابه بعد ما ناله من ثروات هائلة. قيل إنه بدأ حياته يبيع السجائر المهربة في طنجة، وعن طريق الأجنبي الذي كان يزوده بالسجائر دخل عالم تهريب المخدرات، ويقال إنه كان يسهر مع بعض العاملين معه حتى الصباح، فلا يدخن سيجارة ولا يشرب خمرا، بينما يعربد من يسهرون معه. عندما اطلعنا على صوره في الجرائد، إبان المحاكمة، تعرفنا عليه وعلى المصاهرة التي جمعته مع مهرب كبير آخر. كل المرتيليين تابعوا فصول المحاكمة، حيث حاول أن يورط معه أناسا آخرين. لكنه عندما دخل السجن وجد غرفة خاصة قد أعدت له، بها كل حاجيات الراحة، وتلفزيون، ثم جاء من قدم له العديد من الهواتف التي تتوفر على بطاقات تجعل الاتصال يتم

عن طريق الأقمار الصناعية.

كما يذكر سكان الحي إمبراطورا آخر قام بتبييض الأموال فبنى عشرين فيلا، وقبل أن يعرضها للبيع جاء توسيع الكورنيش، فدكتها الدكاكات دكا، ولم ينل أي تعويض لكونها قام بالبناء بدون ترخيص. لم يمت من الغم، وأقام لولده عرسا مشهودا حضره قضاة ورجال الأمن والدرك وأعضاء في الجماعة الحضرية، ومن التقط صورهم هددوه بالقتل إن قام بنشرها، فنشرها في إحدى الصحب، وبلغ عن التهديد بالقتل. ملفات محاكمة هذا الامبراطور شملت آلاف الصفحات، وبعد اعتقاله بقي أبناؤه يصولون ويجولون، ويشترون الذمم بالأموال، تراهم في ليل الكورنيش يسوقون سيارات فارهة أو دراجات نارية بأقصى سرعة، ولا أحد من أمن الطرق يستطيع أن يوقفهم.

بعض شبان الحي وجدوا عملا بعض بعض المهربين، فبعد أن كانوا حفاة عراة جائعين أصبحوا يرتدون ملابس الموضة، ويتناولون الطعام في المطاعم. أخبرني أحدهم بأنه يحصل من عمله في التهريب على خمسمائة درهم في اليوم، وعمله يكون بين الرابعة والسابعة صباحا، وما هي إلا ثلاث ساعات يعود بعدها للنوم، ثم يقضي طوال نهاره في المفاهي. ينفق على أمه وإخوته، ويكسوهم، وما يوفره من مال ينوي أن يشتري به سيارة، وإن كانت أمه تنصحه بشراء سكن لائق حتى يخرجوا من درب صغير تطفو على أرضه القاذورات، ولا ماء ما عدا يُسقى من حنفية على الطريق.

الحاج الرايضي

تعرفت على الحاج الرايضي في يوم من الأيام، فقد جاء يبحث عني في (مقهى الياسمين). رجل يقارب السبعين، لكنه يبدو متشبباً، أشقر الشعر بصباغة في الغالب، فمن يكون في سنه لابد أن يكون قد وخط شعره المشيب، نظارته سميكة ولباسه شبابي، فقد كان يرتدي قميصاً مخططاً فوقه صدار قرنفلي خفيف، وسروالا من البلودجين مشدوداً بحزام جلدي عريض، حيوي الحركات، ناشط وهو يتحدث معي.

دخل المقهى وسأل النادل عبد المولى عن السمسار عبد الرحمن، فأشار إلي. أقبل عليَّ الحاج مبتسماً، وقال لي:

ـ أنت، عبد الرحمن السمسار؟

قلت له:

ـ أنا هو.

وقفت وحييته. جلس بجواري. قال لي:

ـ أنا الحاج الريضي.

عندما استراح في جلسته دعا النادل وطلب منه عصير برتقال ثم قال لي:

ـ أتيت من طنجة.

قلت له:

ـ الحمد لله على السلامة.

قال:

. لدي بناية صغيرة من طابقين، مساحتها خمسون متراً، وهي تتوفر على الواجهة المطلة على البحر، أرغب في أن أجد لها مشتريا.

قلت له:

. نجده إن شاء الله.

طلب مني أن أذهب معه لمعاينتها. البناية من ثلاث طوابق، بكل طابق شقة واحدة، وبالطابق الأرضي محلان تجاريان. سألته:

.كم تطلب آ الحاج؟

قال:

. خمسون مليون سنتيم، بلا زيادة ولا نقصان.

قد له:

. نجد من يشتريها.

أعطاني المفاتيح، وبطاقة الزيارة، ثم ركب سيارته وانطلق عائدا إلى طنجة. عدت إلى المقهى. تأملت بطاقة الزيارة فوجدت أن صاحبها هو صاحب معمل لصنع المعدات الطبية. فكرت في من يقبل على شراء العمارة، فالحاج لم يغال في ثمنها، إن لم يكن ثمنها بخسا، ومن يشتريها يمكنه أن يبيعها بأكثر من ثمن الشراء بكثير. فكرت في أن المهربين هم من يمكن أن يقبلوا على صفقة كهذه. خلال الليل، وأنا أضع رأسي على الوسادة، واتتني فكرة، فقلت:

"لماذا لا أبيع الدار التي تركتها لي أمي، وبثمنها أشتري العمارة؟ الدار تحيط بها أرض شاسعة كانت بستانا ثم أدركه الإهمال، وهي مناسبة لبناء عمارة، كما كثير من البنايات المتواضعة في حينا جاء من اشتراها وهدمها ثم بنى فوقها عمارة.

كثرت العمارات في حينا، ولم تكن تنهض إلا على بنايات قديمة، فالمهم هو مساحة الأرض، أما البناء فمنذور للهدم".

في ذلك الليل، قمت من مكاني وأخرجت الأوراق التي تركها الوالد، فتفحصتها إلى أن وجدت العقد الذي اشترى به الدار. قلت:

ـ بعد موت أمي أنا الوريث الوحيد، ولكي أبيع الدار والأرض الخالية التي معها عليَّ أن أقوم بالإراثة، لأحصل على ملكية الدار.

تفاءلت بأن يساوي ثمن الدار والبستان ثمن دار عمارة الحاج الرايضي، أو يتجاوزه. في الغد قصدت العدل سيدي عبد المومن، فقدمت له العقد، وشرحت له ما أنا مقبل عليه. طلب مني أن آتيه باثني عشر شاهدا، يشهدون على موت والدي، وأنني أنا الوريث الوحيد. خلال يومين جمعت الشهود من أصدقائي ومعارفي وجيران الحي. بعد ذلك حرر لي عقد ملكية الدار وأرسله إلى قاضي التوثيق. بعد أيام حصلت على العقد، وعرضت الدار والأرض للبيع. حينما وجدت المشتري قدم لي عرضا بسبعين مليون. طالبت بثمانين، وحينما لم أجد من يقدمها لي قبلت البيع بذلك الثمن. تلفنت للحاج الرايضي وأخبرته بأنني وجدت المشتري لعمارته. طلب مني أن أحضره معي إلى طنجة للقيام بالبيع في مكتب الموثق. طرت إلى طنجة. طلب مني أن أحضر إلى معمل صنع اللوازم الطبية. وصلت إليه. سألني الحارس عما أريد. أخبرته بأنني أرغب في مقابلة الحاج الرايضي. بعد أن استشار أدخلني إلى مكتب به شابة تجلس إلى حاسوب. لم ترفع نظرها عن الشاشة، وسألتني:

ـ لماذا تريد مقابلة والدي؟

قلت لها:

. لقد وجدت مشتريا لعمارة مرتيل.

قالت:

. آه! أنت هو السمسار؟ وأين المشتري؟

أخبرتها بأنني سوف أقدمه لوالدها بعد أن ألتقي به. كلمت والدها بالهاتف. عندما حضر إلى المكتب رحب بي ثم سألني:

. أين هو المشتري؟

قلت له:

. آ السي الريضي، المشتري هو أنا.

ظهر عليه العجب، وقال:

. أنت؟

قلت له:

. الثمن الذي طلبته موجود.

قال:

. هل أنت تتكلم بجد؟

قلت له:

.كل الجد.

قال لابنته:

. رجاء، خذي السي عبد الرحمن إلى الموثق السي زاكوري، وخدي معك وثائق ملكية عمارة مرتيل، ورقم توقيعي الذي أحتفظ به في البلدية.

قامت من مكانها. ارتدت جاكيتة خضراء كانت تضعها خلف الكرسي. خرجت معها إلى حيث السيارة. صعدت بجانبها. أخذتني إلى عمارة في (شارع فاس) بها يوجد مكتب الموثق السي زاكوري. انتظرنا إلى أن أدخلتنا الكاتبة. تحدثت مع الموثق. سألني:

ـ هل اتفقتما على الثمن؟

قلت له:

ـ اتفقنا. الثمن محدد في خمسين مليون سنتيم.

اتصل بالحاج الرايضي فأكد له أن الثمن كذلك.

قدمت له بطاقتي الشخصية، وشيكا بقيمة ذلك المبلغ. قال لي:

ـ الشيك يجب أن يكون مضمونا من قبل البنك.

قلت له:

ـ قم بكل إجراءات البيع، وأنا آتيك غدا بالشيك وهو مضمون الأداء من قبل البنك.

قال:

ـ لا بأس. تحضر غدا ومعك الشيك، ومصاريف التسجيل والتحفيظ، وأتعابي.

قدر ذلك في خمسة ملايين، وطلب مني أن أحضر في الغد، على الساعة العاشرة صباحا. عدت إلى مرتيل، وفي صباح الغد ذهبت إلى البنك الذي أودع فيه المال، وطلبت من الموظف أن يجعل الشيك مضمون الأداء، ثم سحبت مبلغ خمسة ملايين، وانطلقت إلى طنجة. قدمت للموثق الشيك والمصاريف التي

طلبها. أعطاني وصلا بكل ذلك، وأخبرني بأنه سوف يقدم لي عقد البيع بعد يومين، كما سيقوم بإجراءات التسجيل والتحفيظ. طرت من الفرح. في الطريق وأنا أعود إلى مرتيل، ومفتاح العمارة في يدي، قررت أن أخلي الدار التي ولدت فيها لصاحبها وأن أرحل إلى واحدة من الشقق الصغيرة بالعمارة.

أخذت أفكر في كراء الشقتين، بعد أن سكنت في واحدة، ووجدت أن في ذلك الموقع المطل على البحر، يمكنني أن أكتري المحلين التجاريين لمن يجعل في أحدهما محلا لبيع المثلجات وفي الآخر محلا لبيع السندويتشات، وإن واتاني الحظ أكترى أحدهما ليكون مقرا لبنك من البنوك. بذلك سوف أصبح مكريا، أقبض الأكرية قي آخر كل شهر. تقاسمت هذه الأحلام مع صديقي حسن الديباجي فهنأني بما لقيت. أخذت أحدثه عن أمي لالة خيرة الله يرحمها، فقد عاشت سنوات طويلة من عمرها وهي مريضة، وعن أشجار التين التي كانت في البستان، تعطي أحسن تين تذوقته في حياتي. وقد كنت أحاول أن أَعُدَّ تلك الحبيبات التي توجد داخل التينة فلا أستطيع، وعندما كانت أمي تراني وأنا أفعل ذلك، تقول لي:

ـ هل عرفت عددها؟

أقول لها:

ـ لا أعرف.

تقول لي:

ـ لا يعلم عددها إلا الله.

سألني حسن:

ـ هل أنت فرحان؟

قلت له:

ـ في غاية الفرح.

المحتويات